obeikan.com

دِيُور...ابْنُ الحَرْب

الكتاب: دِيُور...ابْنُ الحَرْب
المؤلف: رباب حسين العجماوي
الطبعة: الأولى ٢٠١٣
رقم الإيداع: ٢٠١٣/١٩١٤٦
الترقيم الدولي: ٢- ٠٦- ٦٤٤٥- ٩٧٧- ٩٧٨
إشراف عام: آية عفيفي
مراجعة لغوية: صهيب إبراهيم
غلاف: NileDesign.com

كامل حقوق النشر والطبع محفوظة
دار الابداع للنشر والتوزيع
موقع دار الكتب الإلكتروني
العنوان : مدينة نصر – ٤٠ شارع أبو داود الظاهري
هاتف : ٠١٠٠٢٠٥٢٢٦٦
E-mail: info@daralkotob.com
www. daralkotob.com

obeikan.com

دِيُور...ابْنُ الحَرْب

"مَلْحمةٌ تاريخيَّة"

"رواية"

تأليف: رباب حسين العجماوي

موقع دار الكتب

obeikan.com

obeikan.com

تحـذير

من حقك أن تقرأ.. تتخيل.. تعيش القصة..

تندمج... تصبح جزءً منها..

ومن حق الكاتب أن ينسج واحدة من خياله...

فلا تدع الخيال يسيطر على الواقع...

إن ما بين يديك ليس كتابًا..

فاحذر؛ ولا تدع السطور تخدَعك.

obeikan.com

obeikan.com

المقدمة:

تدورُ أحداث هذه القصةِ منذُ أحدَ عشرَ ألف عامٍ في بلد تدعي "بيدور"، والتي تقع في الأراضي الغربية من آسيا وتضم ما نطلق عليها الآن: إيران وتركمنستان وأفغانستان وكشمير وباكستان.

وكانت تقومُ حضارةً كبرى آنذاك على تلك الدولة الكبيرة ذات الأراضي الشاسعة والمراعي الواسعة والأُناس الطيبين. لقد برعت في شتَّى العلوم، وفنون السحر وقد كان التأمل علمًا قائمًا بذاته يثير قوى الإنسان ويدمجها بالطبيعة ليطوع كل ما يراه لخدمة الإنسان.

"ديور" حيوانٌ لا يعيش إلا في"بيدور" مزيجٌ من الحصانِ الشرقي والأوربي. إنه حيوانٌ مُنقَّط، له نفس ألوان الأحصنة العادية لكن جسدَه ضخمٌ جدًا ليتناسب مع إنسان ذلك

العصر، له أرجل تشبه الحِصَان الأوربي؛ لذا فهم يرسمونه على علمهم.

ويتمتع نهري "إندس" في الشرق و"وستي" في الغرب بقدسية كبرى، فالأول: يرمز إلى الحبِ والثاني: إلى الجمال، كذلك تحظى الجبال والمرتفعات بمكانةٍ خاصةٍ لدى هؤلاء ولم تكُن درجات الحرارة عالية بل كانت معتدلة.

لم يتعدَّ سكانها بضعة آلاف رغم مساحة الأرض الكبيرة، ويسمون "ذوي الوسط المعدني" فهم يلبسون وسطًا معدنيًا عريضًا لدى النساء فوق الفستان العادي المصنوع من الأقمشة المنتفخة عن الكتفين وما بعد الوسط، أمَّا الرجال فيلبسون قميصًا من القماش والسروال الفضفاض وعند الوسط يتحلون بقطعة رفيعة من المعدن مبطنة -وكأنه حزام- والجميع يلبسون قطعة رفيعة مبطنة من القماش تعقد من الخلف على رؤوسهم، وعادة لا يتجاوز شعر الرجال الكتفين، ولا يلبسُ الأطفال تلك الحلقة المعدنية.

كانت "بيدور" على علاقة طيبة بـ "مصر الفرعونية" كما كانت تقدسها؛ في وسط البلاد. وضع تمثالٌ عملاقٌ لرجلٍ مصري. هو أولُ من عرّف هؤلاء بالحضارة المصرية، وقد اتخذت بيدور "باميان" المدينة الصخرية عاصمةً لها. ووضع تمثالين بجوار التمثال المصري لرجلين برزا في الإسهام في بناء العاصمة -والتي تتكون من عشرة آلاف بيتٍ صخري تتجه جميعها إلى قارة أطلانطس- ثم نحت تمثالين آخرين لرجلين كانا يسكنان قارة أطلانطس غير أن التماثيل الخمسة كانوا دون وجوه، فهم رموزًا وليسوا شخصيات بعينها؛ فالأول: دلالةً على المحبةِ بين "بيدور" و"مصر" والتمثالين الآخرين: دليلا الإخلاص في العمل بل والإبداع فيه، والأخيرين: للدلالة على تقديرِ قارة أطلانطس الغارقة!

ولم تكُن حضارة "بيدور" الأولى على تلك الأرض بل هي نتائج دمج الحضارة الحديثة بالقديمة!، فقد كانت هناك حضارة في بلاد "دور" الغربية؛ أما الحضارة الجديدة ففي "بي" الشرقية، كلاهما كانا يتكلما "المافيتا" لغة أهل البلاد وكان الحكام يعرفون

اللغة الفرعونية حتى يتسنى لهم الاتصال بـ "مصر"، ورغم الاختلاف النسبي في الشكل بين أهل بيدور الشرقيين والغربيين إلا أنهم حقا إخوة!

فالشرق ذوى بشرةٍ سمراءٍ وشعرٍ أسودٍ كسوادِ الليلِ البهيمِ وعنيين عسليتين، أما أهل الغرب ففاتحي البشرة، شعورهم فاتحة لا تستطيع تسميته بالأسود، وهم إما ملوني العينيين أوسوداء قاتمة.

كلاهما يتبعون "سنبارا" الحاكم الطيب الذي يؤمن بشعبه أشد الإيمان بل وبمعتقداتهم ايضًا؛ والذي كان -بمحض الصدفة- من أبٍ شرقيٍ وأمٍ غربية!

رباب حسين العجماي

يناير٢٠١٣

obeikan.com

"الفصل الأول"

- مرحبًا! اسمي "ديور" سأقصُّ عليكم حكايتي محاولاً أن أكون أمينًا صادقًا ومحايدًا في كل التفاصيل التي عملت على جمعها لأكتب هذه الأوراق؛ والتي قد لا تعني شيئًا كبيرًا بالنسبة للكثير منكم، لكنها تعني لي الكثير! أرجو أن تقرؤوها لتكرهوا الحرب مثلي أو لتحبوا السلام أكثر مني..

لم يكن يوم مولدي يومًا عاديًا، بل كان يوم الاحتفال الكبير "هيدارا " فيه نحتفل بمرور قرنًا آخرًا على حضارتنا. وكان القرنُ الثالث قد مرَّ في هذا اليوم. كان ألمُ المخاض قد وصل إلى ثلاثةِ أيامٍ والرابع كان "هيدارا"، ولم يكن أحدٌ يتوقع مجيئي إلى هذه الدنيا في ذلك اليوم فقد كان الناس يائسين من ولادتي، معتقدين أني نذير شؤم وأني سأتسبب في موت أمي، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث بل العجيب أن هذا الكره انقلب فجأة إلى

احترام مبالغ فيه خاصة وأن عمى الحاكم لم ينجب.. وإنني ابن أخيه فأنا الأمل المنتظر، ولأن مولدي صادف يوم "هيدارا". فإنني ولدٌ مباركٌ بل وبُشرَى للبلاد، ولإنني ولدٌ سأكون وليُّ العهدِ بدلاً من أبي الذي سيشرف على تربيتي حتى أتقلَّد منصبي. قيل لي إن صدري كان كصدر الـ "ديور" ذلك الحصان النادر لذا أسموني "ديور" أيضًا. وهكذا، نلتُ مولدًا مقدسًا واسمًا مقدسًا.

لم أعِشْ حياتي كباقي الأطفال؛ لقد كانوا يجهزونني لكي أدرُس الفنون الحربية منذ صغري، وقد كانت هناك تمارين شاقة علىّ. صحيح أن لي ابن عمٍّ -من عمٍّ آخر- إلا إنني ولدت في "هيدارا" فكيف يتعدى قدسيتي؟! لذا فقد كان الوصيف خاصتي وهو أكبر مني سنًا؛ نحو أربع سنوات. كان يحبُ الفنونَ الحربية التي كنت أكرهها اعتقادًا مني أنها تغتال طفولتي فلا ألعب مع العامة أو حتى مع ابن عمي. شيءٌ وحيدٌ هو الذي أجد نفسي فيه بعد اللعب "دروسُ التأملِ"، فقد كنا نتأمل في الطبيعة، السماء، الجبال، المياه، الأشجار، وغير ذلك لنصل إلى درجة تأمل معينة تتيح لنا الطيران مثل العصفور، أو تضيفُ

إليكَ طاقةً تضاعفُ سرعة عدوك، أو تتشابك قوانا وقوى الطبيعة بطريقة نعشقها تدعي "يوجو" (*) كنا خمسةً في ذلك الدرس، ورغم كل شيء لم يكن "هيود" ابن عمي الأكبر -الذي رفض أبوه السلطة- يحضر هذه الدروس بانتظام رغم مواظبته لحضور دروس الرياضيات والكيمياء.

أسوأُ ما في الأمرِ أن تكونَ معروفًا بل ومقدسًا، فإذا خدشتَ فإن العالمَ يجتمعُ كلُّه ليرى ما بك، وأنَّ أُمك تخافُ عليك من خيالِك. أواهٍ! إنَّها حياةٌ صعبةٌ لدرجة أنكَ تخشى اللون الأحمر وتكره الضرب، وكم تساءلتُ لماذا يعلموني كيف أضرِبُ؟ بل ويفرحون عندما أتفوق في دروس فنون القتال، ويخشون عليَّ حتى من خدش؟! ولكني وجدتها عندئذٍ ازدواجيةً بل لقد كنتُ أُنهي النقاشَ بيني وبين نفسي على أنهم كبارٌ ولا أحد يفهم كيف يفكرُ الكبارَ أبداً!

جاء صباحٌ مشمسٌ في يومٍ شتوي، فهلّلنا نحنُ الأطفال، ووقفنا في ساحةِ الصغارِ "تيمارا" مستعدين لمسابقة العَدْو قبل أن يستيقظ والدانا. وتطوَّع "سيستان" طفل ثمين بأن يكون الحكم وقد استعد لذلك بـ "تيكا"(*) في يده، ثمَّ أشار إلينا

وانطلقنا جميعًا، كنتُ مستمتعًا لأن ابن عمي معي في ذلك السباق مما يعني أنه ذا قيمةٍ لديه، وسأكسبهُ لأنالَ رضاهُ فهو كأخٍ لي؛ لا أفعلُ شيئًا يغيظه أو يغضبه، كنتُ أنا أصغرُ منه في الجسم كصِغَرى في العمر. كان علينا الدوران خمس عشرة مرة حول دائرةٍ صغيرةٍ نسبيًا؛ لذا كُنَّا نختارُ عددَ لفاتٍ كثيرةٍ إلى أن وصلنا إلى عشرِ مراتٍ ولكنها المرة الأولى التي نوصلها إلى خمس عشرة مرة.

تجاوزت و"هيودو" المرةَ العاشرة وأعلن "سيستان" هذا حين جاء والدانا مصطحبًا أُمي وأمه، وبدؤا يشجعوننا. ورغم الفزع المرسوم على كل خَلِجَةٍ من خَلِجَاتِ أُمي أكملت، كنت في المقدمةِ حين تجاوزت الثانية عشرة مرة. وحاولتْ أمي أن تتغلب على خوفها على ابنٍ لم يتجاوز الثامنة.

لا أعرف ما حدث بالضبط ولكني فجأةً تعثرتُ قدمي اليُمنى وطرتُ فسكت الجميع. ها هو الابن الفريد يقع، وقعتُ على الأرضِ رغم احتضان ابن عمي لي من الخلف، صحيحٌ أنه خفَّف من الصدمةِ إلا إنني وقعت على وجهي وميزتُ صراخَ أمي وأحسستُ بها تسابق الزمن للوصول إليّ، وانتباني غضبٌ ومرارةٌ

شديدانِ لقد شارفتُ على الفوز. لماذا أقعُ الآنَ؟ لماذا؟ احتضنتني أمي بشدةٍ وعندما لاحظتْ نقطةُ الدمِ على وجهي انتابها رعب شديد، وبسرعةِ البرقِ كنت عند طبيبِ العائلةِ الخاص "ألفد" والذي اندهشَ بشدةٍ لخوف أمي الغير محتمل، ولكنَّ هيهاتَ لقد كانت أعصابي مدمرة حتى إنني لم أفرح كثيرًا لأني لم أُصَب بشيءٍ خطير.

عُدنَا للبيتِ وعُنِّفتُ بشكلٍ فظيع، وحاولتْ أُمي أن تحرمني من هذه المسابقات إلا أن أبي تدخل في اللحظة الأخيرة قائلاً لي وبحسمٍ: اذهب يا "ديور".. اذهب الآن. وسارعت أنا الخُطى إلى غرفتي. أما "هيودو" فقد عُنِّف هو الآخر لأنه لم يحافظ على سلامتي، من وجهة نظر عمي أنه كان من المفروض عليه أن يمنعني من السباق، أواهٍ! هل هذا معقول؟!

ذهبتُ بعدها لأستاذي، حكيمُ مدينة "باميان" سابقًا ومستشارُ عمي حاليًا "كازيتا" منهارًا، ولكنه أفهمني لماذا يخافون علي بهذه الفظاعة؟، ورغم ذلك لم أتفهم، لماذا يغيب العقل عن أمي وعمي لهذه الدرجة؟؛ ولكنَّه علَّلَ ذلك بأن أمي لا حيلة لها غيري. أمَّا عمي فهو عاطفي جدًا، طيبُ القلبِ، وإنْ كان معلمي

سيحسدُ أحدًا فإنه سيحسدُ عمي الحاكم وأبي على وجود أخٍ ثالثٍ مثله "راسيكا" الأكبر، وأحسستُ بخيبة الأمل، ولكنّي نسيتُ سريعًا ما حدث حين بدأنا دروسَ التأمل.

كان هذا اليوم الذي أتتمت فيه التاسعة يومَ سعادةٍ حقيقية، لقد منحني عمي "سنبارا" "ديورا" له نفس السنِ، كان لونه رماديًا منقطًا بالأبيض وحين ركبته كان لدي شعورًا غريبًا وجاءتني فكرة، أن يكون ديوري هذا حقلُ تجارب لدروس التأمل، فنظرتُ إليهِ بعَينَيْ إشفَاقٍ ثمَّ بنظرةِ ثقة، وعندما وقعت عيني على "كازيتا" مستشار عمي وأستاذي وجدتُّه يبتسمُ وكأنه خمن ما بداخلي أو أنه يعرفه! وربَّما مرَّ به قبلاً.

وبعد نحو شهر، كان عليَّ أن أترُك كلَّ الدروسِ تقريبًا لأتفرغ للفنون الحربية، وكان درسُ التأمل يودعني؛ فلن أحتاج في القتال إليه، إنها وجهة نظر عمي "سنبارا" و"راسيكا" بل وأبي أيضًا. أما أنا فأهيمُ في بحرِ التأملِ وأكره حياةَ الحرب. وكان علىّ أن أواجه عمي لأجل ذلك...

لا أُنكرُ إنني أشعر برهبةٍ عند لقاء عمي "سنبارا" وإنني لستُ شجاعًا تمامًا، ولكنّي عنيد جداً؛ لذا فأنا أحتاج إلى قليلٍ من الجرأةِ لأصرحُ عمَّا يجيشُ بصدري.

كان جدّي من أهلِ الشرقِ وجدتي من الغربِ، فلا عجبَ من أن عمي فاتحُ البشرة، أسودُ الشعرِ بنعومة، وسيمٌ إلى حدٍ كبيرٍ-لم يكن لي عمَّة، وكم وددتُ لو كان لي واحدة، ولم يكن لأمي أي أخوةٍ أو أخواتٍ فسأحتاجها حتمًا- كان قصرِه يبعُد عن قصرِنا أنا وعمي نحو نصف كازاكاكير(*)، قبل أن أُقرر الذهاب تكلمت مع "هيودو" فنصحني بألا أحاول، فإذا لم يوافق سأحضر الدروسَ الليلةَ فهي تستهويني، ثم أننا مشهورين بها بعد علوم الفلك فكيف لا أتعلمها وأمارسها، هكذا أخبرتُه، معللاً بأن "هيودو" يحضِر معي كلَّ دروسي تقريبًا.

كنت أعلم إنني أبالغُ ولكنه لم يجيبني حينها بل طلب مني أن أمهله بعض الوقت، ثم سألني هل أودُّ أن أكون حاكمًا فرددُّتُ عليه بمنتهى الصدق حينها ، وأنا آملُ أن أحكم بالعدل والمحبة، "بعد عمرٍ مديد" وبعد إلحاحٍ مني ومن معلمي "كازيتا " وافق، وكم كانت فرحتي كبيرة!

obeikan.com

"الفصل الثاني"

حقًا إن عشتَ في "بيدور" فإنك لن تفكر في تركها وإن سرتَ في شوارعها فسيقتلك الفضول لمعرفة السر الذي يجمع بينها وبين "مصر الفرعونية". أنشأ "بيدور" حاكمها العاشر "بازلس" على طرازها الحالي ومن حينها لم تتغير. لقد كان قائدًا حربيًا عظيمًا، إذا لم تعرف هذه المعلومة من الدروس اليومية فستعرفها من كلّ بيتٍ بـ"يدوري".

لقد أحاطها "بازلس" بسورٍ كبيرٍ جدًا لم يحتَج إلى كثيرٍ من الترميمِ، يخترقُ السور خمسة حصون، أمَّا قصرُ الحاكمِ فيقع في منتصف الدولة تمامًا، كذلك هناك قصر حجري في العاصمة الحجرية "باميان".

-ياهِ! ما لهذي الليلةَ معتمة؟! أين القمر؟.

obeikan.com

صرخ "هيودو" في أذني فعنفته لهذا. وتذكرت حنيها دروس الأستاذ "كازيتا" للتأمل وكيف أن الطبيعةَ تحسُّ بالشرِّ فتغضب، وكنتُ في سنِّ أثقُ ثقةً عمياءَ بالأستاذ "كازيتا" خاصةً وأنا أحبه وأشعرُ أنه أكثر أهل الأرض حكمة. كانت لديه نافذة التاكوتا (*) لتطل منها على الدنيا -كمرصد فلكي- يمكن أن ترى أختها المصرية أو تديرها ناحية أرض المومو أو أطلانطس، وإذا كان هناك اتفاقية بين بلدين فإنهما يتبادلان الإشارات التي وعدني "كازيتا" بتعلمها عند بلوغي الرابعة عشر، وكم تمنيت أن أبلغها بسرعة الضوء لذلك! كان كل شيء يرتبط بـ "كازيتا" يشعرني بفضول، لطالما حلمت بأن أصبح كـ "كايزتا" ولكنَّ هيهات فإن علمه كبير وعمله فضيل.

وعندما ذكرت لـ "هيودو" تلك العين التي تشبه المرصد أخبرني بأنه يعرف ذلك وأضفت بحماس:

- "لقد شارفتَ على بلوغ الرابعة عشر".

- وماذا في هذا؟ فأنا لا أريد أن أعرف شيئًا عن تلك الإشارات، أنا جندي.

كان "هيودو" له مظهر الجندي ببشرته السمراء الملوّحَة من الشمس، عينَاه السوداوان كجدته، ملامحه الصارمة الجميلة، ورغم البراءة المطلة من عينيه إلا أنها تنبؤك بما سيصير معه. الجندية هي حياته. أما أنا، فأهوى العلمَ وأكرهُ الحرب، وكم تمنيت لو أن "كازيتا" يكره الحرب مثلي! وعزمت على سؤاله...

-أتحبُّ أن نذهب ونرى ماذا يفعل الأستاذ "كازيتا"؟

- هيا بنا!

- بهدوءٍ.. بهدوء.

وبالفعل استمعتُ إليه، وذهبنا معًا إلى قاعته الكبيرة بجوار بيته الكبير بدوره، الذي يبعد عنا نحو كازاكير ونص غربًا. كانت المراعي تغلف بيته، أما الساحة الكبيرة المكشوفة فلا أحد يستطيع أن يقترب منها فـ كازيتا يحميها بأسلوب غير معروف للعامة، وقد وعدني أنه سيعرفني كل شيء عن ذلك في دروس قادمة.

وقفتُ أنا و"هيودو" ننظر لتلك الساحةِ من مكمن خلف الأشجار القريبة من الساحة ولكنه لم يكن هناك وتساءلت:

-أيمكن أن يكون نائمًا الآن؟

-لا أعرف حقًا.

-آهٍ! لو لم يكن يحمي بيته وساحته بهذه الطريقة!

-سننتظره حتى يأتي وينظر إلى تلك العين.

سكت "هيودو" برهة ثم أردف:

-آه.. من الفروض أن يكون مراقبًا للأوضاع الآن.

-ولمَ؟

-يقولون أن هناك اضطرابات سياسية حالية.

-بيننا وبين مصر؟!

-بالطبع لا.. أنا لا أعرف مع من بالضبط.

رغم أنها ليلة معتمة استطعت أن أميز وجهه فقد كان "كازيتا" مشعلاً المصباح الكبير على باب بيته ليضئ الساحة فعرفت أنه صادق. ولكني كنت في قمة الإندهاش فما هذه السرية الغريبة وعلينا نحن أسرة الحاكم؟!

نمنا في مكانينا من كثرة الإرهاق؛ ولم يشعر أحد بنا وعندما فتحت عينيّ كان الشفق الأحمر قد داعب ذقني فأيقظت "هيودو" سريعاً، وجرينا إلى القصر كنا نسكن نحن وأسرة عمي في قصر أكبر من قصر الحاكم ولكنه أقل فخامة، لم نكن بالأسرة الحاكمة الكبيرة ولا أعلم لماذا كان قصراً مقسماً إلى أربعة أجنحة، تفرق بينها بتلك السلالم الطويلة بالتساوي، وأمام كل سلم باب ضخم خلفه عدد من الغرف وحمامين أما المطابخ فهي في الدور الأرضي.

عدونا بكل قوتنا لنصل إلى غرفتنا. كانت غرفتي في الجناح الثاني أما هو ففي الثالث وغرفتي كانت الأخيرة في ذلك الممر الطويل وهو في الغرفة الأولى، نادراً ما كنا نتقابل فيها، لقد كان الطريق بالنسبة إليّ طويلاً للغاية.

عندما وصلنا إلى القصر وجدنا أنفسنا على قمةِ التعب، فوقفنا أمام السلم الكبير وقد أحمر وجهانا وكأنهما سينفجران، ودخل كل منا أخيرًا إلى حجرته ونحن ندعو ألا يرانا أحد وألا يكون أمرنا قد انكشف، ودخلنا حجرتنا بسلام، ونمنا

متوقعين أن يوقظنا آباؤنا عندما يستيقظوا لنفطر معًا .. ولكن شيئًا من هذا لم يحدث.

لقد أيقظني "هيودو" وقد ارتسم الفزع على وجهه وهو يخبرني ألا أحد في المنزل المخصص للخدم أو في القصر، كذلك "تيمارا" ساحة الصغار لا يوجد أحد بها؛ وكأن شيئًا فظيعًا قد حدث.

- ماذا تقول؟

دخل الرعب أوصالي فنهضتُ بسرعةِ البرقِ وعدوتُ كالمجنونِ مع "هيودو" فذهبت معه إلى الساحة الصغيرة "تيمارا" فلم نجد أحد، ثم سارعنا الخطى إلى منزل "كيكوتو" الذي كان صديقًا للعائلة فلم نجده، وجرينا كالمجانين نطرق كل باب يقابلنا بلا جدوى وفجأةً صرخت:

- الساحة الكبيرة.

كان لقصر الحاكمِ ساحة كبيرة ملحقة به، إذا أراد أن يخبر شعبه بشيء فإنه يستدعيهم، ولكن ما أرعبنا هو أننا نعرف أن "هوشتا" -الذي ينحت لنا كل ما يخطر ببالنا- كان مريضًا ولكنه لم يكن بالبيت! فلم لا يكون حادثًا طارئًا هو الذي جعل

الناس تترك الشوارع والمصالح؟ وحاولت اقناع نفسي بهذا الخاطر رغم معرفتي بعمى "سنبارا" بأنه طيب القلب رحيم ولن يجبر مثل "هوشتا" على المجئ حتى ولو كان الغزاة على الأبواب!

وصلنا قرب "الساحة الكبيرة " وحينها صرخ "هيودو":

-ها هُم هناك .

طلَّت ابتسامة بريئة على وجهينا الوردي بل القرمزي إثرَ الفزع والعَدْو ولكنها سرعان ما اختفت؛ لقد وجدنا عمِّي "سنبارا" مقيدًا وقد علت الجروح وجهه وأطلت طعنة نفذت من قلبه، ممسكاً به اثنين من الرجال عديمي الشعور، مفتولي العضلات، بيض البشرة، زرق العينين، شعرهم كسلاسل من ذهب، تميّز الوسامة ملامحهما، ولكني كنتُ أرى خوفي من هذين الكائنين، رغم وقوفي وسط العامة، وهما ممسكان بجثه عمي هكذا. لم أكن قد رأيت جثة قبل ذلك ولم أتم الحادية عشر.

تمتم "هيودو":

- لقد قتل الغزاة عمنا.

حينها لم أدرك أبعاد الموقف، ولكن كرهي للحرب والعنف ازداد أضعاف المرات.. تلفتت كالمجنون لأرى والداي و والدا "هيودو" كذلك أستاذي "كازيتا" لم أجد الأخير وسط العامة أو بين الأسرى، ولكني وجدت بين أيديهم والداى و والديه وقبل أن أشيرُ له كان هو قد رآهما.

تساءلت كثيرًا أين الحراس؟ كيف لدولة كدولتنا أن تهزم في جنح الليل بهذه السهولة؟ أخذوهم كلهم على حين غرَّة؟ أواهٍ! يا ربي، أواهٍ!

إنهم الشعب الأشقر الذي يسكن في الشمال الشرقي، إذا عبرت المحيط تجدهم، هكذا قال لي "خورسو" العجوز -لقد كان يعشق دروس الجغرافيا، وكنت أحبه هو الآخر- إنهم قساةُ القلوب لا يحبهم أحد، كان المصريون يتحاشوهم ألن يهب المصريون لنجدتنا؟ أم سيساعدونا بطريقة خاصة؟ لم أعرف حينها بل وقبل أن تسوء الأمور. هل عرف الفرعون بما حل بنا أم لا؟

لم يعرف الجميع "الفيكابو" بل كان هناك واحدًا فقط هو المترجم وكان علىّ أن أتعلم هذه اللغة بعد ثلاث سنوات.. كنت أؤمن بالألوان ودلالاتها عندما كنت أتذكر كلمة "فيكابو" كنت أتذكر اللون الأصفر كالصحراء، وبالصدفة علمت بأن أرضهم كانت صفراء قاحلة! وكان "هيودو" يهتم باللغات كثيرًا، فهو دائمًا يقول أن المحارب يحتاج إلى شيئين السلاح واللغة!

كان المترجم "شابا" يترجم كل كلمة لوالدينا، ويبد وأن القصد أن نسمع نحن العامة ونفهم أيضًا، لم أحزن لأني أصبحت من العامة أبدًا حتى في تلك اللحظة، ويبدو أن "هيودو" لا يأبه لشيء سوى الجندية والإخلاص لهذه البلاد لذا فقد حزنَ علىّ لأني لن أصبح الحاكم رغم أنه حقي! سألت "هيودو":

-ماذا يفعل "فيالا" هنا؟

فأجابني:

-إنه جاسوس خائن.

جاوبني وقد التحم حاجباه في شكل عجيب وكل خلجاته تقول أنه يكرهه.

صرخ "شابا" المترجم إثر صرخة القائد الأشقر:

-إنه حاكمكم الجديد الحاكم "ساكوتا" ويجدر بكم أن تخلصوا له...

تدخل الخائن "فيالا ":

-نعم ولن تشعروا بفرق كبير، من يصغي إليه يكسب ومن لم يستمع يؤكل.

-يا له من فارقٍ ضئيل.

تمتم "هيودو"، بينما ظل "فيالا " يضحك في جنون، كان هذا أحد العاملين بالقصر الكبير، لم يكن بالرجل المهم، ولكن يبدو أنه كان يحصل على معلومات كثيرة بطريقة ما، ولم يتمتع بشيءٍ من ضمير، أما أنا فكنت أعامله معاملة جيدة، حتى أنه استغرب مني كثيرًا وكم عجبت لاستغرابه؟ أليس بشرًا؟ ولكن اليوم يثبت أنه ليس بشرًا على الإطلاق، ولا يحقُّ لنا أن نصفه بحيوان؛ فالحيوانات لديها إخلاص أما هو فلا يحمل كلمتي الوفاء والإخلاص في معجمه.

فجأةً مالَ "فيالا" على "ساكوتا" وقال له بعض كلمات، فملت أنا ناحية "هيودو" متسائلاً كيف عرف لغتهم، فقال لي أنه عاش هناك سنوات قلائل تعلم خلالها "الفيكابو"، لا أحد يعرف

بالضبط ما الذي قاله ولكن على أثر كلماته ترك عمي وزوجته، منعني القلق فرحة نجاة عمي أما "هيودو" فقد كان ينقص فرحته أسر أبي وأمي.

جمدت في مكاني وعصفت بي رياح من قلق مهيب وأنا انتظر مصير والداي، ترى كيف سأعيش؟ ولمَ أطلقوا سراح عمي وزوجته؟ ولمَ هما فقط؟ منعني القلق والخوف من الدمع.. التفت "ساكوتا" إلى أبي وأمي قال له آمرًا:

-هل ستتعاونا معنا؟، وترجم "شابا".

فرد أبي في تهكم واضح وبلغة الفيكابو كما ترجم لي "هيودو":

-أي نوعٍ من التعاون؟

فرح "ساكوتا" معتقدًا أنه في سبيله لمأربه وسارع القول متجاهلاً سخرية أبي:

-أسرار المملكة، أين الـ "تاكوتا"؟

تلك التاكوتا تعني العين التي يطل منها أستاذي على باقي الدول، خاصة "مصر الفرعونية" إنها أغلى ما في المملكة؛ كانت بنفس النطق في اللغتين، لذا اصطفَّت حواجب العامة في قلق

عاصف، صحيح أنهم يعلمون أنها موجودة ولكن أحدًا لم ينظر من خلالها قط. إن وقعت في يده فإن "مصر" ستكشف كلها أمامه. وكم كان يحب الشعب مصر الطيبة ويأمل أن يعيشا في سلام دائمين. كانت "التاكوتا" المصرية تحت هرم صغير حجري(*) بني بطريقة بسيطة وكنا نفتخر أن المهندس صاحب الفكرة كان "بيدوري" أما الآن فكل هذا يعتمد على صلابة أبي وأمي، وأيقنت حينئذ أن "كازيتا" هناك عند الـ "تاكوتا" ليحميها.

فنظر أبي إليه باحتقارٍ ثم نظر إلى الجهة الأخرى مما أثار أعصاب "ساكوتا" فصرخ فيهم أن يعذبهما، وعقد هيودو حاجبيه وترجم لي ذلك. احتضنني عمي وزوجته الحنون، ولم أعرف ما الذي يجب عليّ أن أفعله، حاولت أن أسأل ولكن لساني جمد هو الآخر.

تشبثتُ بقطعةِ الأرضِ التي كنت أقف عليها، وأنا أنظر إلى والداي وهما يعذبان أمام الناس أحسست أن الإنسانية حينها لا تعني شيئًا لهؤلاء وأنهم لو علموا بأمري سيقتلونني حتمًا ولكني لم أحرك ساكنًا. لم أُدِر وجهي عنهما، مرت الساعات

حسبتها دهورًا، والغريب إنني لم أشعر بتعب ولم أكن أقدر على تحريك أي عضلة من عضلاتي وقد كساني العرق.

مال الخائن "فيالا" على "ساكوتا" ثانية، لا أعرف لماذا لم أفرح؟ ولمَ اعتقدت أنها النهاية؟ صرخ "ساكوتا" فجأة وصرخ "هيودو":

-سيقلتوهما.

فالتفتت بكل كياني له مستنكرًا ثم عدت أنظر إليهما بلا أمل وبلا رغبة في الحياة. نظرت إلى عينيهما فلم أجد سوى الإيمان والصمود وهما يقولان لي صبرًا يا بني سنلتقي، سنلتقي في مكان ليس لبشر فيه من سلطان.

لم أجد الشجاعةَ لأصرخ، فقط إحساس بأن ذلك السيف الذي يفصل رأسي والدي ووالداتي رغم أنه بعيدًا عن رقبتي يعذبني، إحساسٌ بالعجزِ فظيع كاد يقتلني، لم أتعدَّ الحادية عشر، قتلوا فيّ الطفل.. أحشائي تتقطع، أنظارُ العامة تتوجه إلى أيدي عمي وزوجته و"هيودو" الأخ الحقيقي تسعى لتساعد جسدي المرتجف وتحثُ ساقيّ على المسير، لم أبذل جهدًا في البكاء فقد كانت الدموع تتساقط دون وعي مني ودون حياة،

العرق كالأنهار، سقطت ولم أفقد الوعي. كم تمنيت أن أغيب عن هذه الدنيا ولو للحظات!، حتى هذه الأمنية لم تحقق. لمَ لا أعرف؟. كنت أشعر بما حولي، كم كانت زوجة عمي حنونة! وكم كان عمي رقيقًا رغم غضبه من ضعفي. آهٍ!، على هذه الدنيا آهٍ! تمنيت أن أخرج منها ولكنها مشتبة بي. لم أفكر بالانتحار أبدًا ولكنَّ أي حياةٍ من دون أبٍ أو أم؟ أي أخٍ في البشرية يقتل إنسانيتك بالتعذيب؛ ثم يأخذ حياتك؟ يا لهذه المعايير! أيُّ حقارة يحملها هؤلاء وأيُّ قيم سينقلونها؟!

"الفصل الثالث"

جاءَ الليل، كان بغيضًا أن يمر عليّ هذا الليل دون أبي وأمي. أنا من دون أسرةٍ حتى من دون أخٍ، يا ويلي سأذوق مرارةً لم أعرفها. كان هناك بيتًا آمنًا لنا بين العامة، لا يختلف عن بيوتهم كثيرًا، لم يكن في العاصمة الحجرية؛ بل كان في مدينة المراعي "ديكاتا" كان جمالها في هذا الظلام خوفًا، ونهاية تلك الجبال الشامخة كانت تعزيني. كان عمي وزوجته "شاكي" يخافون ألا أتكلم بعد ذلك اليوم، ورغم تفهمهم لمأساتي أحسستُ بالغضب يسيطر على عمي، وبالإشفاق يجتاح "هيودو". كان لسكونِ الليلِ أثر كبير فيّ.

في جنحِ الليلِ ووسط الصمت المطبق وبينما أنا على سريرٍ متواضعٍ أحاولُ النوم في ضوءٍ خافت، إذ بصوت قدمين خافتٍ هو الآخر، يشير إلى رجل يخاف من أن يوقظ أحد بالبيت. قفزت

صورة أبي وأمي وهما من دون الرأس وانتابني رعبٌ هائل وتوتر لا مثيل له.

لم أعرف كم أخذتُ من الوقتِ وأنا انتظرُ صاحبَ القدمين ولكن ما أعرفه هو إنني لم أستطِع السيطرة على أعصابي، لم أستطع فعل ذلك أبدًا. فجأةً تلاحقت أنفاسي وتساقط العرق بحيرات، وانتابتني ارتجافة عنيفة ولم أجد ملاذًا، فلجأتُ إلى الحائط ولصقتُ ظهري به خوفًا من أن يفاجئني أحد على حين غرَّة. والتصقت قدماي بالسرير -فقد كان السرير بجوار الحائط -كاد قلبي أن يتوقف وأنا أنتظرُ صاحب القدمين هذا.

أهو من هؤلاء المتوحشين؟ هل سيقطع رأسي مثلهما؟ عنفت نفسي لأني جبان، أظهر الضوء الخافت ظل ذلك الشخص وكأنه كائن بشع لا يَمُتُّ للبشر بصلة. عندما نظرت إلى وجه ذلك الشخص صدرت عنّي همهمةً، لا أعرف إن كانت تشير للراحة أم تشير إلى الخوف الذي تركني، لم يكن هناك وحش بل لم يكن الخيال لرجل أيضًا. كان خيالُ امرأة عمى . وعندما أمنت لهذا لم تستطع قدماي الصمود فنزلت على ركبتاي وأنفاسي تتلاحق، وخفَّ العرق قليلاً، وأصدرت همهماتٍ كثيرة لا أعرف لها معني

وقلبي يسابق دقات التيكا. كانت حالتي مذرية وزوجة عمي تود أن تطمئن علي بعد هذا اليوم البشع فخافت أن توقظني حتى لا أصل إلى ما آلت إليه حالتي الآن... أخبرتني بهذا وأنا بين ذراعيها الحنون. رغم كل محاولاتها ومحاولاتي لأهدأ لم استطع الاستجابة فورًا، وأخذَت هي تهمهم بكلماتٍ لم أسمعها جيدًا ومع هذا الترنيم المحبَّب أغلقتُ عيناي ونمت! نمتُ حتى ظُهر اليوم التالي!

أحسستُ بشيء دافئٍ على جسدي فانتفضت جالسًا لم تكن سوى يد "هيودو" الرقيقة، انتفض هو الآخر كردّ فعلٍ طبيعي ثم ربَتَ على كتفي قائلاً:

- هيا، هيا يا ديور الصغير إلى الإفطار، لقد قارب موعد الغداء، هيا ولا تتأخر.

-حقاً! ولمَ لم توقظوني باكرًا معكم؟

-لقد كنت بحاجةٍ إلى النوم الهنيء.

-أي يومٍ هنيء بعد الآن.. أنتم تقولون أنّي جبانٌ، أليس كذلك؟

فانتفض "هيودو" قائلاً:

-مطلقًا!

فبكيتُ:

-لا أعرفُ، ماذا جرى لي؟ لم أكن كذلك، لم أكن كذلك أبدًا.

-لا عليك؛ والآن هيَّا إلى الإفطار.

لم أتناول فطوري كاملاً، ورغم أن الطعام كان يشجع على الأكل إلا إنني حقًا فقدتُ شهيتي، ولن أكونَ مبالغًا إن قلتُ دافع الحياة، لا أعلم لماذا طاوعت "هيودو" ولكني كنت أشعرُ بأنَّ ذلك الأكل كالمسامير وطعمه كالحشائش، ولمَّا لم أعُد أحتمل دفعت الطبق برفق ، حتى لا أُؤذي مشاعر "هيودو" لكم كان أخًا جميلاً يُعتمَد عليه! تفقدتُ المكان مع "هيودو" سكت في البداية ثم حدثني عما فعلته بالأمس!

-كنت تصرخُ بشكلٍ لم نعرف أن ننام بسببه؛ تهمهم بكلماتٍ غير مفهومة ، لا تستيقظ، ويملأ العرق جبهتك ووجهك، كانت أمي تربت على كتفك وتمسك رأسك محاولةً أن تهدّئك، ولكنك لم تهدأ بسهولة.. ماذا كنتَ تحلُم؟

في البداية لم أرد عليه وأنا أحاول أن أتذكر هل فعلت هذا؟ لهذا كانت زوجة عمي قلقة عليَّ لا تريد أن توقظني . ثم قررت الرد أخيرًا:

-أنا لا أتذكر شيئًا عمَّا قلتُ، لم أكُن أحلم.

قلت العبارة الأخيرة بقليل من الارتجاف فردَّ عليَّ في محاولةٍ صادقةٍ لتهدأتي:

- لا تلق بالاً ! أتعرف؟ لم أَنَم جيدًا أمس، بل إن صحَّ القولُ لم أنَم مُطلقًا، فكلما أغمضتُ عيني أرى ما حدث. إنها ليست مجرد حادثة، ولابد أن تؤثر علينا.

لم أُجب إلا بنظرةٍ مؤيدةٍ لِمَا يقول. وبعد أن انتهينا من تفقد المنزلَ دعاني "هيودو" إلى جولة، فقد كان مستيقظًا قبلي بكثير، وتفقدَّ كل شيء وحده واختار أنسب مكان للعب.

حاول أن يسليني كثيرًا وفي النهاية قرَّر أن نذهب للسوق لنرى ما آلت إليه الأمور وقبل أن يسير نظر في عيني مباشرة قائلاً:

-سوف أُعيدُ لك ملكك، هذا وعد.

نطقها بمنتهى الصرامة، ثم أضاف في حزم:

-ولكن الأمر يحتاج لوقت.. هيا بنا الآن.

لا أعرف حقًا ماذا يفعل عمي وزوجته، والغريب أني لم أسأل؛ وانطلقنا للسوق، وهناك سمعنا أغرب خبر إنه "كازيتا" أستاذي لقد اختفى هو والـ"تاكوتا"، ومن العجيب أننا سمعنا شخصًا يقول أنه رآه هنا في "ديكاتا"، ورغم أننا لم نكن كالفراعنة الحكام

ذوي شكلٍ خاصٍ للرأس، إلا أن أنفُ الحكام عندنا لها قالب محدد نعرف به، لا أحد يشبهنا أو يشاركنا فيه، وكلما كان صغيرًا كلما عرف عراقة أصل ذلك الحاكم وصلته الوثيقة بالحاكم العظيم "بازلس" وأنفي كانت الأصغر أما "هيودو" فرغم صغرها لم تكن تضاهي أنفي لذا عرفنا ذلك البائع . كان يعيش لسنوات في المدينة الحجرية ومن حسن الحظ أن كثيرًا لا يَعلَم بشيمة الأنف هذه في "ديكاتا" البعيدة عن السياسة. وقال لنا أنه رأى "كازيتا" حقًا وسيدلنا على مكانه بالليل، وأنه كان خادمًا عند "كازيتا" يومًا، عندما كان مريضًا فقد كان "كازيتا" لديه يدًا مشلولةً استطاع بعد سنوات أن يخترع دواءً أثمر في علاجه، فلم يعُد يحتاجُ إلى هذا الشخص!

لم يصدق " هيودو" كل الكلماتِ التي قيلت، أما أنا فلم أشك فيه قَط ، افترضت أنه صادقًا، ربما لإنني كنت طفلاً ؟ أو لإنني لم أَمُر بتجارب تقلل من ثقتي بالناس.

جاء الليلُ، كنتُ فرحًا جدًا لا أعرف لماذا سعدتُ بهذه الطريقة؟، إنَّ أسرة عمي هي دنياي الآن، ولكن يبدو أنه ما تبقى من عقل أبي أو الصديق الوفي والأستاذ الشجاع يفتقدني أو أفتقده،

وسأقابله مع الـ "تاكوتا"، وإلا فأين هي؟ ذهبنا معًا لذلك الرجل، " وهيودو" كله قلق كما أدخل بعض الريبة إلى قلبي، أمِنَ الممكن أن يكون ذلك الوجه خادعًا ؟ ليس إلى هذه الدرجة. ليس بالنسبة لطفل؟ كنت لأشعر بشيء لو كان كاذبًا... أخيرًا وصلنا إليه كان يحمل مصباحًا منطفئ وسألته:

-لماذا لم تضيء المصباح؟

أجاب أنه سيضيئه ولكن ليس الآن، آهٍ، كم كان الانتظار شاقًا! بعدما سبقناه في المسير سبقنا إلى ممر جبلي بعيد، وهناك أضاء المصباح، وسرنا على هذا الدرب نحو نصف التيكا، ثم وجدنا كهفًا عملاقًا له فتحة كبيرة، دخل ثلاثتنا إليه وأطفأ النور، وبسدول ستائر الظلام دبَّ الرعبُ إلى قلبي أنا "وهيودو" ثم أضيء نورٌ بعيدٌ في الكهف، فنظرنا أنا و"هيودو" إلى بعضنا ثم إلى ذلك الرجل الذي أشار لنا بالتقدم كان يجلس في آخر الكهف الطويل رجل عاشر الشيب منذ سنين، جلس على كرسي فخم عملاق ذكرني طابعه بقصر "كازيتا"؛ إنه هو، حينها تعانقنا عناقًا حارًا ولأول مرةٍ أرى "كازيتا" يدمع، ولأول مرةٍ أجتاز دائرته الشخصية فلم يكن مسموح لنا بأي حال أن نقترب منه أكثر من

نحو عشرين ساكا (•)؛ مما كان يعطيه هيبة عظيمة لم يمنعني احترامه وصرامته من الخوض في حبه، أو أن أتخذه قدوة، ثم عانق "هيودو" بدرجة أقل فقد كنت تلميذه الشغوف بالعلم الذي يشاركه حب علم التأمل. وبعد حوالي عشرة أجزاء من التيكا دخل عمي والد "هيودو" الذي كان يرقبنا طوال الطريق أخيرًا اجتمع ثلاثتنا، قال الرجل الغريب أنه عرِف بمقدم عمي "راسيكا" ولكنَّه لم يحاول منعه. عندما شكَّ "هيودو" في ذلك الرجل قرر أن يخبر والده وعندها وضعنا تلك الخطة وإذا لم يخرج عمي بعد فجر اليوم التالي سيأتي الرجال، ولم أكن أعرف هؤلاء الرجال ولم ألتقِ بهم قط ، والغريب أن هذا الرجل يعرف عمي رغم أن رسم الأشخاص على وريقات لم يكن فقد اخترع بعد (*)، ولأن عمي كان بارعًا في التخفي قديمًا، قال له:

-لابد وأنك بارعٌ وشخص ذا ثقةٍ حتى أنك لاحظتني.

-في البداية أحسستُ بك، ثم توقفت في الطريق نحو ثانيتين ولم أُدر رأسي، فوجدتُ سيدي "ديور"و"هيودو" ينظران إلى نقطة محددةٍ في الممر وهما مرتاحين، عندها عرفت أنك تراقبنا.

-هكذا إذًا.

-ولم أكتفِ بهذا فلجأت إلى صخرةٍ تلمع من سقوط ضوء القمر عليها ورأيت وجهك.

فابتسم عمي إعجابًا أما "كازيتا" فقد نظر بثقة إلى رجله ثم عرَّفنا به:

-"زاكير" رجُلي المخلص.

عندما أخبره عمي بخطته اطمئن "كازيتا" وقال مازحًا :

-أعتقد أن عليك الذهاب قبل الفجر؟ أما نحن فسنزعج رجلنا المخلص "زاكير" في اصطحابك له.

فرد "زاكير":

-وأنا رهنً إشارتك.

وسألنا "كازيتا" لمَ يخبر "زاكير" الناس بوجوده هنا، فأجاب بأنه هو من أصدر الأوامر في "باميان" نفسها ثم عدة مدن صغيرة صالحة للاختباء، مما أرهق جنود القائد الأشقر "ساكوتا".

طلبنا نحن الصغيران أن نشرب الماء فقام "كازيتا" ليقدم الطعام والشراب إلا أننا تطوعنا لهذا العمل، وبينما نحن نحضِّر الطعام لم نسمع صوتًا لهما فقلقتُ وتركتُ "هيودو" ثم ذهبت للاطمئنان عليهما وعندئذ فهمت.

لقد كان يشرح له حالتي ليطلب منه النصح، لا أُنكر أن ذلك العمل جرح مشاعري -خاصةً وأني رجلٌ ولا أريد أن يقول أحد علي جبان- عندما أرى واحدًا من هؤلاء المحتلين، فإن العرق يتصبب مني وأشعر بضغط كبير علي، ولا أصاب بالقشعريرة إلا في الليل وأنا نائم.

أكره الحرب وسأظل أكرهها إلى أن أموت. توقفت أمامهما فناداني "كازيتا" ونظر إلى وجهي عندئذ قلت له:

-أنا لست جبانًا يا "كازيتا" لستُ كذلك. لا أريد أن ينظر أحد. إليَّ معتقدًا أني جبان.. أنا أكره الحرب من كل قلبي. لقد مات والداي وأخشى أن تفصل رأسي عن جسدي أنا أيضًا فلا أسيطر على نفسي..

-أتدمع؟

قالها بتأثرٍ، ثم أكمل:

- نعم أَدمع يا أستاذي وأمامك؛ لا أعرف ما السبيل إلى الخلاص من هذا العذاب، أريد الحياة ولكن مع من أحببتهم . لطالما قلت لك أني أكره الحرب، لطالما قلت لك أني أكره المُلك أريد أن

أعيش بسيطًا أريد أن أجري وراء العلم، لم أتم الحادية عشر غير أني أشغف بالعلم وأنت تعرف ذلك جيدًا.

بعدما أنهيت لاحظت إنني أدمع بغزارة كالسيل. فأضفت:

-لم أعد أقدر على السيطرة على نفسي.

حينها ضمني إليه بقوة وقال لي أنه سيعلمني كل ما تعلَّمُه.

مرَّت ثلاث سنوات قد أتقنت فيها لغة "الفيكابو" وأنا مضَّطرٌ لذلك؛ إنه الاحتلال؟ دخلت أنا و"هيودو" لنتعلم في مدارس تحت إشرافهم، كان عهدٌ يشبه عهد عمي من حيث اضطراري للتوقف أثناء الدراسة عن العلم الذي أحبه، ولكن الآن عمي قد برحنا ولن يعود، ولن أطالب بشجاعة لكي أتعلم، وكان علي أن أذهب يوميًا تقريبًا إلى " كازيتا " بصحبة خادمه الوفي "زاكير" حتى أتعلم كل ما يعلمه هو. كانت متعة بالنسبة إليّ.

ثلاث سنوات لا تكفي لأنقل عن "كازيتا" علمه، كنا بالليل نطبق ما تعلمناه، وفي إحدى الليالي قرر أن يفصح لي عن سرٍ لم أسمع به من قبل بل لم يلمّح أحد به أمامي.

وقف "كازيتا" وقد صرف "زاكير" قرب فتحة في الكهف لنطل على ليل بهيم ليقول لي:

-أتعرف المدينة الحجرية؟ أتعرفها حقًا؟

فجاوبته:

-إنها كبيرة جدًا على طفل ليعرفها .. لماذا تسأل أستاذي؟

-ألم تسمع يومًا بممرات حجرية أرضية (*) تحت "باميان" و"ديكاتا" و حتى "شوساكا" الجنوبية؟

-لا لم أسمع.

جاوبته بمنتهى الحزم وقد عقد جاجبيه في اهتمام.

-ستمر يومًا منها لتصل إلى "هليوبوليس" قرب العاصمة الفرعونية منف (*) حقاً إنها رحلة شاقة تأخذ أسابيع ولكنها مأمَّنة، مأمَّنة جدًا ولن يطاردك أحد بها.

-أذهب إلى مصر؟!

-ليس الآن، ليس قبل سنين أخرى. ستذهب ولكن ليس الآن.

ثم أضاف:

-هناك الكثير لتتعلمه. لن تذهب إلا بعد أن تُلِم بعلم التأمل، ستصبح ثروة بالنسبة إليهم.. قد نجد لك علاجًا ؛ فقد أعطوا اهتمامًا واضحًا للأمراض النفسية في السنوات الأخيرة، وسأشتاق إليك.

لم يُضف كلمةً أخرى، بل ولم يُجب عن أسئلتي.

"الفصل الرابع"

مرَّت نحو ثلاث سنوات أخرى، أصبحتُ فيها يافعًا، لم يحدث خلالها شيء ذا قيمة.. كنتُ راضيًا عن حياتي، ولم أكن قد تقدمتُ خطوة كبيرة للأمام.

لو كنت في قصري القديم لاختلفت الأمور ولكنت الآن أمتلك زوجة، لطالما تسائلت هل اللعب مع البنات يختلف عن اللعب مع "هيودو"؟ لو كان لدينا ابنة من عمنا "سنبارا" كنا سنحبها معاً وقد نختلف بسببها؟ لطالما سألت "هيودو" الواقعي الذي يجيب دومًا:

-"لماذا تفكر في أشياء لم تحدث وتتوقع نتائجها؟ نحن معًا ولن يفرقنا شيء لا امرأة ولا رجل. أم أنك تنوي غير ذلك؟"

ابتسمتُ لذلك الرجل الذي لا يريد أن يفكر أو أن يجهد نفسه في التفكير، وأقسمت داخلي على أنه جندي من أعلى رأسه حتى أخمُص قدميه. ثم أضاف:

-وأنا بالفعل لدي مخطوبتي...

لقد كان على وشك الزواج منها إنها فتاة لطيفة طيبة كأخت لي. أما أنا فبرغم التجارب العارضة في حياتي طَغَت تلك التجربة القاسية عليّ، كيف لي أن أرتبط بواحدة تراني خائف من العدو إلى درجة رهيبة؟ كيف أرتبط بواحدةٍ تستيقظ كل ليلة تقريبًا فزعةً عليّ؟ كيف لواحدة أن تعوضني أمي وأبي؟ كل من قابلتهن لم أتفاهم معهن، وقد صرحتُ قبلاً لـ "كازيتا" بعدم رغبتي في الزواج، لكنه عنفني وأخبر "هيودو" الذي عنفني هو الآخر.. أعرف أنهما يشعران بي، ولكن شدة حساسيتي لهذا الموضوع كنتُ أقفل عقلي وقلبي أيضًا.

في صباح أحد الأيام مررتُ أنا "وهيودو" على ساحة كبيرة قرب السوق، لم يكن ليجرؤ أحد على المكوث فيها لوقت طويل، برغم أنه نادرًا ما نجد أحدًا من المحتلين فيها. لم يكن الجميع ذوي شعر أشقر، ذلك الشعر الذي يؤثر فيّ، ولم يلبسوا جميعًا زِيّ

الحرب الذي أكرهه، والذي يجعلني في حالة الرعب هذه. الشعر الأشقر والعيون الزرقاء وذلك الزي البغيض أو أي منهم، لم أعرف حقًا ما الذي أفعله عندما أرى أيًا منهم.

وعندما رأينا واحدًا من هؤلاء تعرفناه بلون بشرته وملامحه التي لا تدل على انتمائه لهذا البلد، والتفت لي "هيودو" ناظرًا إليَّ باستغراب فجاوبته بأنه رجل لا يلبس لباس الحرب وعيناه وشعره أسودان فأومأ برأسه متفهمًا، ويا لهذه الحالة! إلى متى ستلازمني؟ حقًا تعبت! كم أنا تعِس!

لقد وصلت إلى نقطة مهمة في دروس التأمل، وبدا من الواضح أن تعليم "كازيتا" لي أوشك على الانتهاء. كنت استطيع الارتفاع لمسافات طويلة، كنت أجلس نحو ست تيكات لاستطيع الركض كالفهد، كنت أتَّحِد مع الطبيعة لفعل أشياء لا تظهر مع الأناس العاديين، كانت هناك أشياء ليس لها تفسيرًا؛ مثلاً عندما يأتي المطر لا استطيع فعل شيء؛ فلا أتَّحِد مع المطر أبداً بل يُحدث تشويشًا في فكري ولا استطيع التواصل. أحيانًا أستمعُ إلى أصوات غريبة لا أسمعها في العادة وبلغةٍ لا أعرفها ولا يعرفها أحد بعد الخروج من الجلسات. إذا نظرت إلى "كازيتا" فإن

خنسره يرتعش بشكل رهيب حتى أحول نظري عنه، وعندما أنظر إلى "هيودو" عَقِبَهَا مباشرةً يطيرُ في الهواء نحو كيرين (*). كان "كازيتا" يرتعب أحيانًا، وأخرى يشجعني على فعل مثل هذه الأشياء لأحدث اضطرابًا للمحتلِّين ولكني لم استطع. فأنا لم أملك خيارًا.

حاولت حينها أن استخدم قواي وقوى الطبيعة ولكنْ عندما أتوتر أفقد كل تركيزي ولا أقدر على التواصل، ورغم كل شيء صممتُ على أن أصمد وبدأت بالصعود حتى وصلت إلى عشرة كيرو بجوار "هيودو"، أما ذلك الرجل فلم يصرخ بل قام من مكانه متطلعًا فيّ بذهولٍ ثم ذهبت إليه طائرًا -دون أجنحةٍ طبعًا، فاليوم لم تعد "بيدور" تعلم شيئًا عن علم التأمل إلا في الجمعيات السرية وبينما أنا في طريقي للهبوط إذ برجال في الهيئة التي أكرهها أتوا، ارتجفت بشدة ووقعت من ارتفاع ثلاثة كيرو، لم يحدث لي شيء عظيم ونظرت إلى ذلك الشاب الذي كنت أعمل على اضطرابه فإذا بقدميه ترتعشان بصورة كبيرة مما أصابه بالفزع وقبل أن يفرغ لي هؤلاء الجدد سلطتُ نظري على قائدهم محاولاً التحكم في أعصابي فإذا به يرتعش بشدة

ويسقط مغشيًا عليه. والتفَ حوله باقي الشباب ثم رجعوا خطوة وهم في خوفٍ شديدٍ أما أنا فلم أصمد أكثر من هذا فقد ارتعش جسمي نتيجة لتوتري وما أخرجته من قوة كامنة(*). كان جسمي أصغر كثيرًا من جسم "هيودو" الضخم. فلِكَي أطيرُ لابد من أن أنقص وزني(*)، ولم يكن جسدي بالطويل لذا فقد حملني "هيودو" على ظهره وقد شُلَّت حركتي تمامًا بل وغرقت في عرق كالسيل، كنت أصرخ في جسدي ولكنه لا يتحرك ولا لساني يريد الطاعة فتساقط الدمع، ورسى في الجفون الحزن.

ذهب بي "هيودو" إلى "كازيتا" هذه المرة أيضًا لم يَغلِب إصراري هذه الحالة المرضِيَّة. وكم تمنيت أن أتخلص منها!، وكأن الروح قد انفصلت عن الجسد. جرى "كازيتا" وجاءني بما يدثرني به ولكن كل محاولاته لم تفلح. وحكي له "هيودو" ما جرى. وكم كان فخورًا بي ولكني حُبستُ في ذلك الجسد الجبان المنهك، فقال "كازيتا" في حرارة:

-عليه أن يَبرح "بيدور" بأكملها سأرتب سفره إلى مِصْر بعد أن يفيق مباشرة، سأذهب به إلى الممرات الصخرية.

ولأجل ترتيب السفر بعث بـ "زاكير" إلى حيث لا أعلم، بل وذهب إلى ركن صغير بالكهف مسرعًا وهناك كانت تقيم الـ "تاكوتا" ثم أصدر إشارات ضوئية ملونة لا أعرف مصدر هذه الألوان فهذه هي المرة الأولى التي أراها ملونة!

علمني "كازيتا" كيف أكون مِصْريًا، مصريًا لم يطأ أرض "مصر". لذا جاءني بنماذج مصغرة ودربني جيدًا غير أن بعض الكلمات ما زالت تخرج من فمي بلكنة "بيدورية".

قمت بنصف جسدي العلوي بعدما استرخيت نحو نصف تيكا، لقد تغيرت تغيرًا ملحوظًا عن ذلك الطفل، ذا الشعر الأسود الداكن والذي أصبح أفتح قليلاً، وعيناي لا هي سوداء ولا هي بُنيَّة، إنها تبدو في الشمس كحشائشِ الأدغالِ خضراء مسودَّة لا أعرف كيف ولكن ذلك يعجل من التحام قواها بالشجر، أما وجهي فقد علَته الحمرة وفمي أصبح محمرًا أيضًا وأصبحت بشرتي أفتح من "هيودو" عابد الشمس فلا يبرح مكان يجمعهما أبدًا حتى أصبح كزنوج إفريقيا*. ملامحي لم تعد تحمل الهدوء أو السكينة ولكنها تعبر عن البراءة التي لم أعرف غيرها.

قمتُ وقد علا العرق جبهتي وكُحِلَتْ جفوني وكأني لم أَنَم منذ وقت طويل. استندت إلى ذراعي الأيسر فجاءني "كازيتا" وتأكد أن حرارتي طبيعية ثم سألني إن كنت أحب أن أستريح فسألته:

- مالي أراك في عجالة؟ من الممكن أن أسافر غدًا.

- لقد وصف لي "هيودو" من فعلت أمامه.. أنه رسام ولا شك في أنه سيرسم ما حدث أو يرسمك ويبعث بصورتك إلى "ساكوتا" وحينها لن تقدر على البقاء، ثم أنه من المحتمل أن يسعى وراءك. كم كان من الغباء أن أطلب منك شيئًا كهذا!

- لا عليك سأكون بأمان في مصر. ما الذي تريد أن أفعله الآن؟

- ستأتي معي لنصعد الجبل معًا نحو الممرات الجبلية هناك وستكون رحلتك إلى مصر وستجد هناك ما يريحك ومن يريحك.. ستتقابل مع صديقي "ميناويس" إنه أحد كهنة "هليوبوليس" ليعرفك على طريق مختصر إلى "إدفو" لتعيش هناك حتى تستقر الأمور. ستجد هناك أشياء تعجبك وإجابات لأسئلة تحيرك.

- متى سأعود؟

- عندما ترجع "بيدور" لنا.

-كيف؟

- دع أمور الحرب لأهلها فقد خلقتَ للعلم. اذهب في رحلة العلم، ستجد الكثير هناك. لقد أسستك فلا تنسَ نصائحي، واترك أمور الحرب لمن هم مؤهلون لها. إنه عذاب حقيقي لك؛ العيش هنا. اذهب وغدًا ستعود وقد تجد علاجًا حينها ولن يمنعك أحد أو شيء من المجيء، اذهب.

تركني أُحضِّر متاعي للرحيل ونظرت للكهف، ذلك الكهف الذي تعلمت فيه الكثير في سنواتي الأخيرة، وكم كنت أتساءل ماذا سأفعل إن لم يجدوا لي علاجًا وإن طال المدى؟!، أمكتوب عليَّ العيش في هذا العذاب؟ أم ماذا؟!

تأخذ الرحلة أسابيع لذا فقد استعنت بـ "ديور" للقيام بتلك الرحلة ، وكان يشبه ديوري كما كان علي أن آخذ أكل يكفيني ومياه تشبعني، ولهذا حملت حقيبة كبيرة من القماش بها الطعام والشراب وأخرى صغيرة لملابسي . سأسلك درباً طويلاً وحدي، كنت قلقاً وإن عاودني الخوف فماذا أفعل؟

يبدو أن "كازيتا" قد أحس بي وخمن فيما أفكر لذلك قال لي ونحن في طريقنا إلى الممرات:

-لا تقلق ستجد الفارس الأخضر في انتظارك عندما تتأزم الأمور.

-الفارس الأخضر! أتلك الأسطورة (*) صحيحة؟

-نعم، بالطبع.

كانت هناك أسطورة متداولة عن فارس أخضر مِقدام عاش من الوقت ما لم نَعِش، ينقذ من هم تحت الأرض، يأتي في الوقت المناسب كي ينقذهم من شرور تحدق بهم، كثيرًا تسائلنا ونحن أطفال، كيف لنا أن نعيش تحت الأرض حتى ينسقذنا؟! ثم ما الشرور التي ستحدق بنا ؟!، الموتُ مثلاً؟ ومِن ماذا؟ وكلما سألنا، قالوا لنا إنها أسطورة، إنه رجل أشيب يتحدث بصعوبة ولكنه يقدر على فعل الكثير. أي كثير؟ وأي رجل في مثل عمره يقدر على الحركة ؟ ولكن الآن حللت مشكلة ما تحت الأرض، إنها الممرات الصخرية، فأي شرور ستقابلني هناك؟

عقدت العزم على الرحيل فأي شيء أفضل من العيش مع الخوف طوال الليل، مع نوم مضطرب، مع العجز الذي لا تقدر على قهره حتى عندما تتحد قوتك والطبيعة، فإنك تستمر في عجزك أمام قوى أكبر، والغريب أنها قوى وحيدة بل وأنها بداخلك، إنها قوى الخوف؛ الخروج عن السيطرة هو ما أجده

حينهـا. كانـت تلـك الأفكـار تثير الإحبـاط في قلبي وكنـت أرى أن الممرات هي النور الوحيد الذي سيغمرني، ولعلي أجد حلاً وأرجع مسرعًا أو لعلهم ينتصرون على هؤلاء الأوغاد.

وصلت إلى أرض صخرية لا بها ماء أو عشب ولا يصل إليها طير، أرض صخرية يخشـاها النـاس؛ مـن يبقى هنـاك مصـيره المـوت. أوقفني "كازيتـا" في مكان في عمـق تلـك الأرض ونظرت إليـه وإلى "هيودو" والخـادم النبيل "زاكير". لـم يبد الحيرة سـوى عليّ وعلى "هيـودو" وتحـرك "كازيتا" بخطوات ثابتة نحـو صخرة معينة، إن نظرت إليهـا سـتجدها مثل البقيـة لا يميزهـا شيء وقـال "هيـودو" مستفسـرًا:

-أين نحن؟

فرد كازيتا مبتسمًا:

-على بُعد فيكات من الممر الصخري.

ثم أشـار إلى "زاكيرا" فحمل معه تلك الصخرة المتوسطة الحجم، فظهرت حفرة عميقة مظلمة، ثم أمرني بالنزول!

كانت عميقة نحو خمسة كيرو وقطرها لا يكفي سوى لرجل شاب وطفل صغير كانت عبارة عن أنبوبة ملساء انسيابية فدفعت نفسي إلى اليسار لألمسها وبعدها كان هناك منحدر.

بادئ ذي بدء، لا أُنكر أن قلبي كاد أن يخرج من محجره ، ولكن عندما مسَستُ الجدارَ بيدي وأحسَستُ بنعومته اطمأن قلبي وشعرت بنشوة وإثارة لم أعهدها في حياتي كلها، ها قد جاءت روح المغامرة المكمونة داخلي لن أخف كالسابق. وأحسست أن قلبي ينتعش بالأمل، انزلقت مع المنحدر بسبب الأنابيب التي أصبحت أفقية، لقد بقيت وحدي وأحسست جزَاء وداعي للثلاثة إنني لن أراهم ثانية أو هكذا اعتقدتُ، ترى أي خطة ينوون، وأي حل سيقومون به؟ كنت قلقًا عليهم، في البداية كان الممر الرأسي مظلمًا عندما اتجهت ناحية اليسار أحسست بأن هناك الآلاف ممن سبقوني إلى هناك؛ فقد كان مجوفًا وعندما أصبح أفقيًا وجدتُ مصباحًا له شكل طبق في أعلى الأنبوبة، وسريعًا انقضت الأرض الملساء وأصبحت حجرية لقد حفر نفق منتظم وسط الحجارة والغريب إنني أمشي فيه بسهولة بل مضاءً ومليئًا بالهواء المنعش لابد وأن أحدًا يعلم كيف يعمل على تهويته.

نزلت وحدي في ذلك الممر ولم يسمح لي "كازيتا" أن آخذ ديور معي لأن الفتحة صغيرة ولم يرسله بعدي، فأين هو؟! سِرتُ مسيرةَ سِت تيكات وحدي، والكشَّافات(*) الموضوعة بالأعلى أو الدقيقة بين الصخور تضيء لي. لقد علمت أن هذه الممرات قام عليها عمال ومهندسون من مصر وبيدور معًا، وشعرت أني لم أبرح بيدور قط، لقد كانت الحجارة مرسومة بمهارة بالهيلوغريفية ولغة "المافيتا"، رسم خطوات بناء هذه الممرات فلم أشعر بالملل.

جلستُ قليلاً لآكل، تلك الحقائق والرسوم التي قفزت ورائي عبر الممر متعتني كثيرًا، وقد أطلقت عليه اسم "ممر المتعة".

كانت هناك مفاجأة، مفاجأة جعلت أنفاسي تهرب مني. لقد كانت حيَّة؛ أفعى كبيرة، وهنا لعنت حياة الترف، ما بالها لا تُنبِت فارسًا، أم أن ظروفي هي التي وضعتني في هذا الموقف؟ إنها المرة الأولى التي أقف أمام حيَّة لقد كُتِبَتْ النهاية البشعة. كم قرأت كُتبًا في مواجهتها وقد تنفع جلسات التأمل في إبعادها، هكذا فكرت في ثانية واحدة.

نظرتُ إلى عينها وحاولت أن أركز فيما أفعل، ولكن الأفعى لم تكترث لما أفعل، بل أخذت تقترب وتقترب إلى أن أصبحت قريبة نحو فيكا (*) واحدة أو أقل والتصقت بأنفي، وهنا وكأنها ميزت الأنف الملكية. ويبدو أن إصراري على التأمل منح عيناي نظرة لم يكن بها خوف نظرة حسبتها عتاب فخفضت رأسها ثم قامت بحركة تحسبها الركوع، ثم تراجعت إلى الوراء ولازمتني وكأنها تحرسني مسيرة تيكا ونصف، ثم لاحظت فحيحها ورائي، فنظرت إليها وقد هدأت أعصابي كثيرًا فنظرت إليّ وكأنها تقول أن تلك المنطقة محرمة عليها، فأومأت برأسي سامحًا لها بالتراجع ففهمتْ ونظرتْ إليَّ بفخر ثم عادت.

سرتُ في طريقي أغنِّي، كنت أجيد الغناء وكان صوتي جيدًا جدًا – هكذا كانوا يقولون لي- وضحكت عندما فكرت فيما حدث لي، ياللعجب! أسيحالفني الحظ أخيرًا؟ أكملتُ المسيرَ حتى أني قضيت سبع تيكات أخرى. وفجأة سمعت صوت أنفاس حذرة، أنفاس دبَّت الرعب في قلبي أوه ! ما هذا الحظ العَثر؟!

obeikan.com

"الفصل الخامس"

لم أقف مكتوف الأيدي هذه المرة متمنيًا أن يحالفني الحظ كما كنت أفعل في السابق، وبينما كنت أستكشف ما حولي، إذ بي أتعثر في شيء كاد يوقف قلبي عن النبض، لم يكن شخصًا حَذر الأنفاس مطلقًا، بل رجلاً غريبًا نائمًا في ثياب لا أعلم من أين أتى بها؟! كلها خضراء عجيبة لا يميز كونه بديوري إلا الوسط المعدني فهذه الملابس لا تمت إلى "بيدور" بصلة! والغريب تلك القبعة التي تشبه قبعات المهرجين المرتزقة، وشعره الأشعث الأشيب المموج الذي يوحي بأنه من دم رخيص حتى يُهمل إلى هذه الدرجة! لعله أحد العمال الذين ساهموا في بناء ذلك الممر الممتع أو لعله من المنبوذين. كان نائمًا بطريقة غريبة فاردًا ذراعيه ورجليه أيضًا، ثم إنه يصدر صوتًا مخيفًا كالتنين، حتى أنك تنتظر النار التي ستصعد من أنفه! تنهدت ولكنه لم يسمعني عندها انتبهت

لما أقف عليه إنني أقف على أرض خضراء مثمرة! تُرى من أين لها بالتربة والماء؟ (*)

فجأةً وجدته يسعل واعتقدت أنه كبير السن، وانتابته نوبة من العطس وخِفتُ من أنه سينقل إليّ العدوى فوضعتُ يدي على أنفي. ولكنه استيقظ قائلاً :

-إنه حقًا مؤلم ! يالهذه الوعكة.

وأخذ يسعل، حييته فرد علي التحية باسمي وعرفني بنفسه:

-أنا الفارس الأخضر.

-الفارس،ماذا؟.

دلت نظرته على أن تعبيري لم يرق له، فجأةً أحسست أن الحقيبة التي تلاصق ظهري مبتلَّة، ونظرت لأجد أن الماء كله سُكب بسبب تعثري في قدمه، لكم ندمت على معرفتي به!، وبينما والحال هكذا إذ بذلك الجد يسعل ويعطس بصورة تثير الشفقة. فتحت حقيبتي وأخرجت منها أعشابًا قد أعطاني إياها "كازيتا"، ولأن حجمه كبيرا أخذ أكثر من نصفها في كف واحد ثم ذهب إلى زاوية قريبة ودق بيده ثلاثًا فَفتح بئر من الحائط، ثم أتى بكوب وتناول الأعشاب بسرعة وخفَّت حدة مرضه سريعًا، ولكنه لن

يُشفى قبل ثلاثة أيام. وللوقاية أخذت أنا باقي الأعشاب حتى لا أصاب بشيء وقد قررت أن أستريح يومًا أو نحو يوم معه.

كان مظهره يثيرُ أعصابي وكنت أشعر بأن الدم يغلي، متجاوزًا مخي بقليل حين أراه هكذا في هيئته الرثَّة، لقد كانت الثياب كبيرة الحجم عرضًا وطولاً عليه، يبدو أنه حبس هنا منذ سنين!!

حكي لي أنه كان في شبابه فارسًا على أرض "بيدور" ولكن والده مات فتطوع في بناء الممر وأصبح حارسه، عندما يحتاج إليه أحد ينجده، ولكنه الآن يحتاج إلى أحد يعاونه، يالسخرية القدر! مَن مِن المفروض أن يساعد مَن؟ أتراه قد قام بواجبه معي؟

سألته بشغف عن هذه النباتات المثمرة فقال:

-إنها نباتات تؤكل، أثناء الحفر وجدنا بئرًا للماء ولأني الحارس، ولأن لي خالاً يعمل بالفلاحة، فقد تعلمت أن هناك بعض النباتات لا تحتاج لتربة ولهذا أزرعها بالماء فقط، أمّا الشمس فهناك من اخترع مصباحًا عجيبًا من مِصْر كالشمس يحتاج إليه النبات، وقدم إليّ واحدًا، كان عبارة عن زجاجةٍ طويلةٍ مفرغةٍ من الهواء، لا بل شبه زجاجٍ قابلٍ للثني . إنه أعجب شيء رأيته في حياتي.

عـرَض عليَّ أن يوصلني ولكني كنت سأقلق عليه وهو في طريق العودة!! فأصريت على أن أصل هناك وحدي، والحق أنه كان فارسًا وكريمًا معي؛ فقد قدم لي من بعض ثماره، وأعطاني مياهًا وثمارًا تكفيني أسبوعين على الأقل.

مرت ستةُ أسابيعٍ وأنا في ذلك الممر ونفد ما معي من طعامٍ، ولم يعد جسمي يحتمل، حتى بعد النوم الذي أرى في أثنائه عائلتي وأتصور فيه الكاهن، لم يعد يريحني كذى قبل، شعرت بالإعياء، ولم تعد المياه تكفيني، ولم أعد أستطيع النوم على تلك الحجارة.

مرَّ يومان وأنا مُنهَك ولم أَعُد استطيع أن أستعيد قوتي رحلة شاقة، كانت تلك الحادثتين وتلك الرسومات هي السبيل للترفيه عما أُحسُّه، كل هذا الوقت أمهلني فرصة للحديث مع نفسي وسمح للأفكار السيئة والمحبِطة أن تسكن رأسي.

أخيرًا رأيت النورَ وعلى أعقابه الأمل "مِصْر" ورأيت جسدين يقفان بجوار الفتحة لا يجعلني قرص الشمس أرى شيئًا بوضوح ولكني سمعت صوت أنثى تقول:

-إنَّهُ مُتعَبٌ يا أبي.

صرخَت وكأنها تعرفني أو تنتظرني، ساعدتني هي وأبوها الذي عرفني بنفسه:
-أنا الكاهن"ميناويس" وهذه ابنتي.

كنت أبذل جهدًا خرافيًا حتى أقف على قدمي، ونظرت إلى عينها بعينين نصف مفتوحتين، لقد كان شعرها أسودًا ناعمًا، بشرتها كبشرتي، ونظرتُ إلى عينها إنها خضراءٌ! نعم خضراءٌ وحينها قفزت ، لا أعرفُ كيف ؟! ثم تراجعتُ إلى الوراء بجانب الفتحة وسالَ العرق مني وتذكرتُ كلَّ شيءٍ ليلة الحادثة أمي.. أبي.. رأسيهما.. الضحكات.. عجزي.. "هيودو" .. "كازيتا"، وصرخت أنا:
-الخائن.

التصقت بالصخر بجوار الفتحة وهما يحاولان الاقتراب وأنا لا أجد مهربًا وأخذتُ أصرخ؛ حتى الطاقة التي كنت أحتفظ بها قد نفدت، ولم يَعُد لي أيَّ قوة حتى للمقاومة، واستسلمت لذلك الإحساس بالضياع، ورغم أن الشمس كانت تبدأ رحلتها للسطوع كانت بالنسبة لي في طريقها إلى المَغِيب، كنت أفقد وعيي

وأنا في أسوأ حالاتي أرتعش، شعري يلتصق بوجهي من العرق، أنفاسي تتلاحق، عضلاتي متعبة، نفسيتي غير مرتاحة. فقدتُ الإحساس بكل من حولي وتركتُ جسدي يستريح بعد نحو سبع سنوات سيستريح ولكن لحين.

لا أعرف كيف كنت أفكر في تلك اللحظة ويبدو إنني كنت مخطئًا لقد ارتميت في بئر ولم أجد آخره أبدًا. ظلامٌ حالكٌ ليس له نهاية.. أمي وأبي، "هيودو" و"كازيتا"، "بيدور" و"أشكال" مموَّهة، الشعور بالضياع لم يفارقني حتى عندما بدأت أستعيد وعيي كنت أشعر بأنين عضلاتي وكأن روحي استهلكت حاولت أن أفتح عيني ولكنها أبت وقد أحسست بأن رواسي الأرض قد سكنتهما.

دَبَّ اليأسُ فيّ خاصةً وأنا أشعر بدوار شديد، فأهملت تلك المحاولة ونتائجها، سمعت أصواتًا تُصدرُ من بعيدٍ وكأنها نابعة من حجرة في الجوار. حاولت بإصرار ففتحت الجفنين لأرى، لقد كانت صورة معتمة ملؤها الضباب من كثرة الدوار والاضطراب. رويدًا رويدًا انحصر الضباب حتى رأيت الغرفة... لقد كانت غرفة ملحقة بغرفة أكبر منها أثاثها قليل جدًا؛ مجرَّد سرير ومنضدة صغيرة على شكل مستطيل منقوش عليها رسوم فرعونية، فقد

كان المصريون مهووسين بتلك النقوش! أما نحن فمهووسون بالألوان، وكرسي رُسم عليه هو الآخر. لم ينفد صبري من تلك الرسوم الجميلة وشعرت بأنها بداية مشجعة. كانت ترقد على تلك المنضدة عدَّة قوارير صغيرة تنتهي قمتها بعنق طويل رفيع، وكأنها قطّارة، كُتِبَ على جميعها عدا واحدة!

سمِعتُ جَلبَة في الغرفة المجاورة أوحَت لي بدخول أحد، بالفعل كان الراهب ذلك الراهب الذي أثار بداخلي كل احترام ومحبة ومهابة! وعندما رأيته تذكرت ما حدث فقلت على الفور محاولاً القيام:

-اعتذر منك أيها السيد الكريم، كما أودُّ الاعتذار من الآنسة ابنتك. لقد كنت سخيفًا.

-لا عليك استرح... أعتقد إنني لم أُعرِّفُكَ بها كما ينبغي. إنها "ممنفيس" ابنتي المتفرغة للدراسات النفسية والنابغة في هذا المجال، وهي في سن الحادية عشر كنبوغك في علم التأمل.

حينها غَمَز بإحدى عينيه ثم أكمل:

-"لقد ساهَمَتْ بشكلٍ ملحوظٍ في علاج الفرعون الصغير" حتى أنها نالت قلادة الطب على شكل عين طائر الرَّخ الكبير بسبب ما

بذلت من جهد. لقد درست حالتك جيدًا وستعمل على علاجك، ولكنها تقول دائمًا أننا نعالج الأعراض النفسية، أما العلاج الحقيقي يتوقف على المريض نفسه.

طرقتُ بعيني في الأرض وأنا أحاول تصور شعور الإشفاق التي تشعر به نحوي في تلك اللحظة، وبينما كنت أفكر في من وجهة نظرها إذ بالكاهن يقول:

-سأتركك لتستريحَ... أراك غدًا.

لم أكن أعرف حقًا ما يجب فعله ، وكم كانت حاجتي لتلك الراحة! لقد كانت كل خلية من جسمي تَئِن، ولكني لم أكُن أَقدِرُ على النوم وتساءلت ماذا يمكنني أن أفعل؟!

فجأةً انفتح الباب، وظهر على إثره فتاة في نحو التاسعة عشر أو تزيد يحمل وجهها ابتسامة، ولكنها لم تكن "ممفيس" ولم أهتم لها أو لمعرفة اسمها. وتساءلت ألن تأتي؟! حملت تلك الفتاة إحدى القارورات ثم قطرتْ في فمي بعضًا منه، ولم تمر تيكا حتى أحسست بأن الأنينَ قد توقف وأصبحتُ الآن مستعدًا لنومٍ سريع، وبالفعل هذا ما حدث لم أكن أتناول طعامًا ، بل كنت أشربُ عدَّة سوائل، فلم أكن أَحتمل مجهود المضغ؟!

لم تأتِ وأحسست بالذنبِ ربما تخافُ عليّ من تأثير عينيها، وتساءلتُ من أين لها بتلك العينين؟ إنها تشبه ذلك الرسام الذي كان سببًا رئيسًا في التعجيل بسفري لمصر، ولكنها بدرجة أُخرى. أود الآن أن أنتهي من التفكير.

لم يدخل عليّ أحد سوى تلك البنت، والتي سألتها بهدوء عن ممفيس، ولكنها لم تُفِدني ولا أعرف إن كان أحد أوصاها بذلك أم لا.

جاءَ اليومُ التالي كنت نائمًا لتيكا متأخرة، ولن أقول أنه لم يداهمني كابوس أو اثنين ولكنها بالنهاية كانت ليلةً هادئة. حاولتُ أن أقوم ولكن الدوار والرعشة عاودتني، وقد قال الكاهن أن هذا نتيجة ضعف أصابني إثر الرحلة ولم تتوتر أعصابها سوى بتذكر عيني "ممفيس".

تساءلت كثيرًا لمَ لا تأتي ولكن تذكري لعينيها منعني من طلبها، لم أَقدر حتى بيني وبين نفسي أن أنعت تلك العينين باللعينة، كانت مشاعر أكبر مني هذه المرة لم أمنع نفسي من هذا الاهتمام. بل إنه أكبر من الاهتمام لقد كان طريقي للحب! كنت معظم الوقت من الأسبوع الأول نائمًا، ولم أكن آكلُ بل كنت أتناول السوائل

الدافئةِ وأحلم بصاحبة العينين الخضراوين! ومرَّ نحو نصف الأسبوع التالي حتى طلبت رؤيتها. كان الكاهن يزوروني باستمرار وكان يحاول أن يشعرني برجولتي، ويحث ثقتي بنفسي على المجيء والاستمرار، ولكني سرعان ما أفقدها عند تذكري لهذا الحادث، وقد سألتُ نفسي كثيرًا هل ممنفيس جُرحَت بتصرفي هذا؟ أم أنها كانت متوقعة ما رأته؟ لقد تراكمت الأفكار والخواطر في رأسي ولم أعُد أُفكِّر بـ "ديوري" أو"بيدور" والعودة إليها كما أفكر بها!

ما إن طلبتها حتى جاءتني كانت جميلة جدًا، فعندما رأيتها أحسست بأن شيئًا ما بداخلي قد وقع أو أن شيئًا قد دقَّ جرس الخطر، ولكني لم أُصاب بأي عرقٍ أورعشةٍ كما في السابق.

تنهَّدَت بارتياحٍ وابتسمَت وقالت:

-كان ولابد من أن تطلبني لأعلم أنك على استعداد لمقابلتي.

وفكرت... كم كان صوتها عذب! وأَكمَلَتْ:

-بالطبع! لاحظت أنك لم تُصَب بتلك الرعشة أوتتصبب عرقًا؛ ذلك القِدْر الأخير -الذي لم يكن عليه كتابة- أثره كالسحر يهدِّئ الأعصاب تمامًا كدروس التأمل.

وتساءَلتُ:

-هل.. هل تعرفي دروس التأمل؟

كان صوتي متعبًا متحشرجًا تمامًا كصوت حيَّة ورغم ذلك تجاوزت الموقف وتجاوزته هي أيضًا يبدو أنها كانت تفكر فيما أفكر!

أخبرتني أنها تعرف عني الكثير من والدها وصرَّحت لي بعلاقتها الطيبة بالعجوز الأخضر، وتساءلت كيف لفتاة ناضجة أن تكون على علاقة بأخرق كهذا، ولكني سرعان ما عدلت عن ذلك التساؤل حين تذكرتُ بما أمدني به من معلومات. إنها فتاةٌ رائعة، علمتُ بعد ذلك أن أمها من جنوب الصعيد، وهناك أرض مصرية بها بشر ذوي عيون بلون البحر أو العشب (؟)، ولذا فقد جاءت عينها مثل أمها. فياللجمال المصري!

-كلُّ شيءٍ يعتمد عليكَ أو أنك ستعيش للأبد بذلك الدواء المهدِّئ. لابد وأن يكون لديك إرادة وعزيمة وثقة بالنفس وأعلم أنك تملك كل هذا.

-ألم تعتقدي إنني جبان؟

-مطلقًا، لوكنتُ مكانك لا أعرف ما الذي كان سيصيبني ربما أسوء من ذلك.

فشعرت بارتياح لقد كانت هي فتاة أحلامي، لم أسعد حقًا إلا بتلك الأيام التي قضيتها في إدفو حتى استعدت كامل عافيتي، ولاحظ الكاهن ما تولد من مشاعر لي تجاه ابنته، والغريبة أنه لم يعترض أو يلمح لرفضه رغم أن ذلك من حقه؛ فابنته مصرية وأنا من دولة أخرى من الممكن أن آخذها يومًا إلى "بيدور"، ولكنه كان متفهمًا.

كانت تُريني المعابد المصرية والطبيعة الخلابة وكنت أندمج معها حتى أطير وأدعوها بعيني لتصعد بجواري. كانت تستمتع أو هكذا أحسست. كنا نضحك طوال الوقت، لقد أحببتها، عندما استعدت عافيتي كان علينا أن نأخذ ممرًا حجريًّا آخرًا، ولكن هذه المرَّة بنقوشٍ مصريةٍ مائة بالمائة حتى نصل إلى "هليوبوليس". كانت مشقة ولكنها لن تصل إلى ربع ما عانيته خاصة وأنا لست وحدي هذه المرة فمعي الكاهن وابنته. فياللحياة إنها جميلة! ولأول مرة أُفكر بشكل إيجابي تمامًا.

"الفصل السادس"

لم يحدث شيء غير عادي، ونحن في ذلك الممر. لقد استمتعت كثيرًا بالتحدث إليها كما استفدتُ من الكاهن "ميناويس"، والذي اعتبرني ابنا له. كم كان عطوفًا!، ولم تشعرني ممنفيس بمرضي أوتحاسبني على نقصي، كما لم تنسَ الدواء، غير إنني وكلما اقتربت منها تساقطت قطرات من العرق البارد على جبهتي واحمرت وجنتاي، ولا أقدر على الرد عليها في وجود الكاهن! وصلنا إلى "هليوبوليس" وقد شارف الطعام والشراب على الانتهاء كم كنت متعبًا؟! ولكنني الآن لستُ وحيدًا، وقد كان معنا خادمًا يرعاني، ورغم تعب أبداننا لم تعاودني الوعكة ثانية، وراودني إحساسٌ بالشفاءِ التَّام والراحة غير أن شوقي لبلادي ومعرفة أحوال أهلي لم يهنئوني على شيء. وتساءلت كيف سيأتيني البريد

وأباشر الأخبار مع كل هذه المسافة البعيدة، وكانت الإجابة تنتظرني في "هليوبوليس".

دخلنا منزل الراهب "ميناويس" بغية الراحة فوجدنا طائر"الخولا" يرفرف بجناحيه، إنه طائرٌ نادرٌ الآن غير أنه كان يلقب بطائر الحرب؛ كان أشبه بالحمام الزاجل إلا أن ألوانه فاقعة! كذلك لديه قدرة على التضليل؛ فإن تابعه أحد فإنه يسير في طرق معوجة حتى يضلل ذلك البغيض إلى أن يصل إلى هدفه طالما معه رسالة. حتى ولو كان هذا أخوه من الخولا ، لم يكن أي من المصريين يعرف هذا الطائر لذا فقد ظنت "ممنفيس" أن سيده قد صبغه فقلت لها بينما الكاهن يبتسم – فقد زار "بيدور" قبلاً وهو يفتح الباب:

-"ليس لديه سيد مخبولاً أو شيئا ليصبغه، إنه طائر ال" خولا "".

ثم عَدَّدتُ لها صفاته، ونظرت نحوي بدهشة أشعلت ما بقلبي من شوق، وبالكاد أجبرت نفسي على النظر تجاه الكاهن. ثلاثةُ أيامٍ مرَّت وأنا أفكر، لم نبرح البيت طوال تلك المدة، كان الخادم قد ابتاع في اليوم الأول ما يكفينا لمدة يومين آخرين، كنت لا أراهما سوى أثناء الوجبات رغم إنني كنت أعشق كلاً منهما

وأستفيد من كلمات الكاهن، فجأة استجمعت شجاعتي قائلاً، وقد كان أبوها في حجرته والخادم يستعد في طلب للغداء:

-أرى أن أجرب الامتناع عن تناول الدواء يومين أو أكثر فإن احتجته فسأتناوله فورًا.. أرجو أن أُجرِّب هذه المرة لأرى قوة إرادتي ومقاومتي.

-لك ما شئت ولحظت حينها حُمرة خفيفة احتلت صفحة وجهها، وكأنما قد قرأتْ ما يدور بخلدي، وتناولنا الغداء.

كنتُ أغسلُ يدي عندما اقترب مني الكاهن مقترحًا:

-" أنت لم ترَ "هليوبوليس" رغم أن لك نحو ثلاثة أيام فيها. لم لا تأخذ "ممنفيس"لترونها معًا؟"

رحبتُ بالفكرةِ وذهبتُ بها على الفور إلى الخارج، لم أكُن أعلمُ إلى أين؟! ولم أُعطِها فرصة للتفكير، فقالت محاولة أنها تبطئ من خطاي:

-إلى أين؟ أنا لم أُخطط إلى شيء.

فقلتُ لها:

-هيا نطير.

ضحِكت ضحكة ارتعش لها قلبي وانتشى لها جسدي وكأنها قد زودتني بطاقة، كانت تلقائيتها وعذوبتها السبيل لحرقي شوقًا، كانت هذه المرة الأولى التي أشعر بذلك الحب الجارف نحوها أو نحو أي فتاة أخرى فتنهدت وقد تشبثت يداي بيدها لتقف:

-حقًا ... سنطير.

استغربتْ حقًا وفتحَتْ فمَها بأسلوبٍ مضحك، ولكنني لم أضحك، لقد أحسست أنها أجمل فتاة في العالم، مع تلك الملامح المتعبة، ونظرتُ إلى عينها مباشرة -كنا لا نزال في حديقة منزل والدها- ثم إلى الأشجار بالحديقة وعلى وجهي ابتسامة، والغريب أن الطاقة التي أمدني بها حبها قد قللت من المدة التي أخذتُها في التأمل.. لقد طرت على ارتفاعٍ لا يقل عن أربعة كيرو، ثم نظرتُ إليها فطارت معي، إنها المرة الأولى التي لا أرى فيها أثارا غير مرغوبة من تلك الجلسات، لقد كانت أصغر الجلسات وأشدها رومانسية، لقد كانت ممنفيس معي. أحسست بنشوتها وبارتجافة قصيرة وصلتني عبر يدها ثم اعتادت على ذلك، وراحت تشرح بحرارة ما نراه من معابد ولماذا بنى كل ذلك العدد.

هنا معبد"قابلون" إنه من بلاد"التبت"، ولكنه أتى إلى هنا وبنى معبدًا بعد أن وثق بطرقنا في العبادة وهناك قصر الفرعون الصغير والذي لا يسكنه حاليًا، ولم يعتنِ به أحد منذ وقت طويل.

-إنهم مهووسون بالرسوم تمامًا كنحن مهووسون بالألوان والتحف.

نظرتْ نحوي وابتسمَتْ، وأحسسْتُ أنها هي الأخرى لا تعرف حقًا لمَ كل هذه الرسوم ؟ولكني خمَّنتُ أنه هاجس مصري بالإبادة والفناء، فهم يريدون الخلود .. قطعَتْ حبل أفكاري وهي تقول دون مقدمات:

-لقد حمل لك الـ "خولا " رسالةً، أليس كذلك؟

فابتسمت لذلك فقد استطردتْ بسرعة:

-إن كنت لا تريد إخباري فحسنًا لا مشكلة.

-لا، حسنًا .. اقرئيها بنفسك.

فقرأت:

عزيزي "ديور"

تحية طيبة وبعد،،

بعثتُ بهذهِ الرّسالةِ لكي أطمئنك أن الجميعَ بخير، "هيودو" سوف يكتب لك، لقد أقنعته أن يتم زواجه من "شنسن" في يوم عيد ميلادك..

فقلت حينما بلغت تلك الجملة:

-عيد ميلادك؟!

-إنه اليوم الذي يوافق ميلادك من كل عام نحن هنا نحتفل بمولد الفرعون والفرعون الصغير وبعض الكهنة أيضًا، ترى ألا تحتلفون به؟

-لا إن "بيدور" لا تحتفل سوى بالأعياد القومية فقط.

-آه، إننا نعتبره عيدًا قوميًا.

-لم أعرف دلالتها ويبدو أن "كازيتا" عَرِف إنني سأسأل الكاهن عن هذا، ولكنه ليس الكاهن؛ إنها أجمل ما شاهدت من النساء على الإطلاق.

علا الاحمرار وجهها إلا أنها تجاهلتني تمامًا وأردفت:

لا تقلق بشأن مكانك فالـ "خولا" كما تعرف لا يمكن تتبعها، وهذه التي معك لها قدرة كبيرة على المراوغة وقد دربتُها بنفسي، لقد مارست اللعبة الفرعونية القديمة فأشعت أنك في بلاد التبت مرة ومصر مرة وبلادهم عند نهر الشمال مرة، حتى أنهم توقفوا عن البحث الآن، ولكن احذر قد لا تتمكن تلك "الخولا" من الطيران إن أفلح أحد في إصابتها لذا فلا تُشر على أي شيء يدل على مكانك.. اتفقنا.

نظرت إلي وقد رسم الحزن ملامحي فعَرِفت مقدار حزني، لأني لن أرى زيجة "هيودو" الذي كنت أحدثها عنه طوال فترتنا في الممر فواستني بكلمات رقيقة، ثم غيرت دفة الحديث لأحكي لها عن "بيدور" وعيشتي هناك.

بقدر اختلاف بيدور عن مصر بقدر تشابههما؛ لقد كانتا حضارتين تقومان على أساسٍ واحدٍ ودينٍ واحدٍ، حين تجدهم يبالغون في شيء تجدنا نبالغ في شيء مشابه. لم أشعر بالغربة كثيرًا فقد كانت "ممنفيس" والكاهن بمثابة أهل لي، ولكن مهلاً اقترب موعد زفاف "هيودو" وتخيلته بملابس الزفاف وقد أضاء

الليل كله، لقد كنت أحبه حبًا جمًّا ولم أجد سبيلاً للتعبير عما يجيش بصدري حقًا، حتى تلك الرِّسالة السخيفة بدَت كأنَّ شيئًا لم يكن، كيف يُزَفُّ أخي وأبعث له برسالة تهنئةٍ رخيصةٍ! لا؛ لابد من أن أُرسل له هدية وهدية كبيرة، وأخذت أفكر ولكني لم أهتدي لشيء حتى أنه بقى أسبوعان على الزفاف.

أسررت إلى ممنفيس بهذا ورغم كل شيء لم أترك الدواء، وكم شعرت باستغراب إزاء ذلك التصرف ولكني حقًا لم أعرف لمَ لم أعزف عن ذلك الدواء حتى الآن، وقد زادت حاجتي إليه في تلك الفترة، والغريبة أن "ممنفيس" لم تهتم لذلك وكأنها تتوقع تصرف كهذا، فجأة قررت "ممنفيس" أن نزور معبد قابلون ونتفقده من الداخل، واستشفيت أنها لم تجد هدية مناسبة.

عرفتني بكبير الكهنة هناك والذي قدَّم لي هدية جميلة جدًا، لم أحلم بها إنها تحفة صغيرة على شكل درع ملتصق بها سيف درع من الذهب الخالص، أمَّا السيف فمِن الذهب المُطَعَّم بالعاج، كانوا مهتمين بكافة التفاصيل بمنتهى الدقة؛ فيا لهم من فنانين! قال إنها بمناسبة خاصةٍ بي، ثم تقدم نائبه وقدم لي شيئًا آخرًا أشبه بصندوقٍ صغيرٍ غير أن له تجويف يسده كرةٍ صغيرةٍ

قدمه أبيض كبير الكهنة إليَّ هو الآخر متحدثا بجدية: إذا مسَّك سوءٌ أو تعرضت لخطر محدود اضغط على هذه البلورة الصغيرة وستنقذك حسب الموقف، لا تجعلها تضيع، تذكر ذلك الشيء ولا تنساه.

قررتُ أن أُرسل الهدية الأولى إلى "هيودو" واحتفظت بالثانية لي بعدما شكرت ممنفيس بحرارةٍ احمرت لها وجنتاها -لكم أحببت تلك المرأة!- جاء يوم عيد الميلاد لم أستيقظ باكرًا فقد كنت أنتظر الإلهام لأكتب إلى "هيودو" كانت رسالة مطولة تحكي كثيرًا مما أحس، إلا موضوع "ممنفيس" فقد أخفيته على الجميع، رغم رسائلي لـ"هيودو" و"كازيتا" لا أعرف لماذا؟، يبدو إنني كنت أنوي لهذا الحب أن ينمو دون أشواك.

أصبحت على غير العادة دون توتر، مرتاح البال فقد تخلصت من معظم مشاكلي ووجدت أنه دون دواء لن تحدث كارثة وبالفعل تجاهلت زجاجة الدواء المهدئ تمامًا وأنا أحاول تذكر مشاعري تجاه "ممنفيس" متجاهلا لحظات النظر إلى عينيها.

خرجت من حجرتي لأجد مفاجأة، لقد أعادت ممنفيس ترتيب البيت بأيدي الخدم، وأحيانًا بيديها نظرت إلى عيني مباشرة ورغمًا عني توترت عيناي ولم تقدر على الثبات، قالت:

-أنت لم تأخذ الدواء، أليس كذلك؟ حسنًا، أنت في حالةٍ تسمح لك الاعتماد على نفسك.

ابتسمت ابتسامة عذبة أنستني كثيرا مما أعانيه ثم أردفت:

-انتظر سوف أحضر لك شيئًا.

وغابت وراء باب حجرتها ثم عادت ومعها عدد من رسوم متقنة للمعابد المصرية وأخرى لها ولأبيها ثم واحدة لم تكن متقنة ولكنها مرسومة بكل المشاعر إنها صورتي أنا فقالت خجلة مني:

-آهٍ .. أعتقد أنها غير متقنة، ولكني أحببت أن أقدم لك شيئًا من صنع يدي.

لم أدرِ ماذا حدث، لقد وجدتها بين يدي وقبل أن أقبلها تذكرت ما فعل والدها من أجلي فتراجعت مسرعًا للخلف وقد تهيجت مشاعري وارتفع صوت تنفسي واحمرَّ وجهي كما حدث لها، لقد اعتبرتها خيانةً لوالدها، عجزتُ عن النطق كذلك هي، حتى قالت أخيرًا:

-آهٍ .. لقد أعجبتك.

ثم انصرفت مسرعةً إلى غرفتها وعلى وجهها ابتسامة خجل، لم تغضب مني، يبدو أنها تعرفني أكثر من نفسي، لقد أحرجها أكثر ذلك الخادم الذي يقف للتنظيف، وقد وقف ليشاهد ذلك العرض، ياله من متطفل! لم يبعد نظره عني حتى نظرت إليه باحتقار فتابع عمله بينما أخذتُ هداياي ورجعتُ من حيث أتيت.

لا أعلم، لقد ركزت نظري على صورتها ثم صورتي التي رسمتها، كانت أجمل ما رأيت أنها أفضل هداياي، لكم احترمت تلك المرأة! ولم أفعل شيئًا حتى المساء إلا أكلة بسيطة بعد الذي حدث، غفوت نحو نصف تيكا، حتى سمعت أصواتًا بالخارج ورائحة بخور الشَّمال، فتحتُ بابَ الغرفةِ بعد تبديل ملابسي وغسل وجهي بعناية. كانت "ممنفيس" تنظر إليَّ وكأنها تنتظرني ولكنها لم تكن وحدها، وكذلك "منياويس"، كان هناك ضيوف متنوعين من كبار إلى صغار عامة، حكماء وكهنة، ولكنها تألقت رغم العدد الكبير بفستانها الطويل وشعرها المعقوف بدقة ورسمة عينيها بالكحل. كانت جميلة خاصة مع تلك الخرزة الخضراء المعلقة

على صدرها التي تبرز لون عينها بوضوح، لم أكن أقل أناقة من هؤلاء وشعرت أنها لا ترى غيري، عرَّفَني أبوها على هذا وذاك؛ كبير الكهنة "حوريس" كذلك أحد الكهنة الصغار على اسم أبيها "ميناويس" ثم امرأة أنيقة لا أنكر جمالها "أوزوريس" لم أقلَق من شيءٍ ولم أشعُر بالحزنِ فقد كنت فَرحًا بما فعلوه معي كضيفٍ رسمي على "مِصْر" وليس حاكمًا خُلِعَ منذ سنين، أحسست بأن مكانتي عادت كما كانت رغمًا عن أنفي، يبدو أن عمِّي أبا "هيودو" كان يعاني مثلي، هكذا فكرت فأحسست تجاهه بالإشفاق.

كانت ممنفيس وكذلك ميناويس سعداء بتقديمي لهؤلاء الضيوف شعرت برضا وراحة نفسية لم أشعر بمثلها قط، تثاءب الليل بسرعة وقرر الضيوف المغادرة حتى لا تستيقظ الشمس وهم جلوس عندنا، وعندما أغلقت بابي كنت أتمنى أن أحضر زفاف "هيودو" ولم أكف عن التفكير في ذلك الأمر إلى أن غلبني النعاس، وانقضت ليلة كنت أعتقدها من أحلك الليالي.

"الفصل السابع"

استقرت الأمور، كل في عمله غير أني لم أكن قد بدأت في شيء، كان هناك الكثير لأتعلمه، قضيت أسبوعين أفكر دون النطق بما يجيش في صدري، ساورني شعور بالقلق.. كيف تسير الأمور بهذه السرعة؟ إنه أمر غريب! لماذا أعطاني كبير الكهنة ذلك الصندوق الغريب؟ آه لو.. لو ماذا؟ "لو" هذه تضيع الوقت أكثر من أي شيء، لن أفكر أكثر، أنا جئت لآخذ العلم وسأسعى له.

لم تنقطع رسائل "هيودو" و"كازيتا" الذي أخبرني الأول عن حياته الجميلة الهادئة الهنية أما الثاني فقد كانت أخباره بطيئة عن تكوين جيش منتظم. أوه! أنا تعبت من الانتظار، انتظار الفرح، الثأر، الانتقام، الحب، المحبة، السلم، الهدوء النفسي، الاطمئنان عليهم. آن الأوان ليرجع كل شيء إلى نصابه، ولكن

القوة هي الشيء الوحيد الذي سيعطي كل تلك المعاني، كيف أسعى لكل هؤلاء دون قوة تساعدني؟! لن يحدث أبدًا.

جلست على مائدة الإفطار وقد عزمت على فتح ذلك الموضوع قائلاً لـ"ميناويس":

-ألم يَحِن الوقت لأعمل؟

-أنا أعمل على هذا فلا تقلق.

-متى؟

تسائلت بلهفة، ولكنه جاوبني برصانة أغاظتني:

-إن الكهنة في "مصر" لا يعرفون سوى المغناطيسية ()، وهي التحام قوى البشر وبعضها عن طريق التركيز من خلال العينين للتحكم في الأشخاص، أما "التأمل" فلا يعرفون عنه الكثير، وإن كان بعضهم لم يسمع به! لذا؛ لم لا تُعلِّمُهُم؟ لقد وصلت إلى درجة لم يصل إليها "كازيتا" نفسه وهي تحطيم الأحجار بعينيك. فلم لا؟

-أنا؟ لقد جئت هنا لأتعلم وليس لأعلِّم؟ أنا لم أتجاوز التاسعة عشر، وتطلب مني التدريس لمن هم أكبر مني بكثير بل أكبر منك

obeikan.com

شخصيًا؟ صعب عليّ قبل أن يكون كذلك بالنسبة إليهم. ثم إنني أحتاج التعلم منهم. لا أراها فكرةً صائبة.

ولكن ممنفيس قالت بحماس:

-ولم لا؟ لم لا تؤلف كُتُبًا في هذا المجال؟ سيكون لك السبق، أقسم أنك ستكون أكثر شهرة من "جوريس" شخصيًا.

-أرأيتِ؟ لن أُكوّن عداءات أكثر.

-لا تبالغ .. ستكون عداءات إن لم تفعل.

وأشارت إلى نفسها وأبيها، فقال أبوها بشكل قاطع:

-لن أُعاديك مهما حدث.

ابتسمت لوالدها ثم إليّ، كم كانت رصينة!، بعد موافقتي أخيرًا قرر ميناويس أن يطرح الفكرة بعد أن أكتب شيئًا بالفعل، فشرعت في كتابة "أُسس التأمل الحديثة"، كنت آمل أن أتذكر كل ما كان يقوله "كازيتا"، أمَّا "ممنفيس" فقد زادت من جهدها في دراساتها النفسية -خاصة للأطفال- فقد كانت مؤمِنة بضرورة وجود عناية خاصة بهم، كذلك كانت تقرأ كل ما أنهيه من أجزاء الكتاب، ولم أعرف حقًا كيف كانت تجد الوقت لهذا بجوار

جلساتها النفسية! وأخيرًا أنهيت الكتاب وقرر "ميناويس" مناقشته مع كبير الكهنة ومجموعته، وقد عهد لشخص معروف بخطه الجميل لنسخ ما كتبتُ، وكان عليّ مراقبته وهو ينسخ للتعديل أو الحذف، ولم تكن تخلو الأيام من زيارات للمعابد والنظر إلى "هليوبوليس" من فوق ستة عشر كيرو.

لقد كنت أعيش كل تلك الفترة دون الدواء، وقد شعرت بالفخر لذلك، وفرحت "ممنفيس" وكذلك "ميناويس" لما وصلتُ إليه. ولكن عندما جاء موعد النِّقَاش، لم أقدر إلا أن أتناوله، وظهر على "ممنفيس" خيبة الأمل وهي ترى كيف انخفض المستوى السائل في الزجاجة، أما "ميناويس" فقد ربَت على كتفي، وسرت معهما لحضور تلك الجلسة.

كنت أُحب حديقة المنزل، وسِرت فيها وكأنَّ كل زهرة تدعو لي بالتوفيق، كان ولابد من درس عملي ليفهموا أن ما كتبه ليس خيالاً، نظرْتُ إلى عيني "ممنفيس" لقد أصبحت لا تشكل جزءً من قلقي، أصبحت دافعًا قويًا للعيش، والكفاح أيضًا، ثم دخلت خلف "ميناويس".

رُسم على معظمهم الانبهار أما الباقي القليل فملامح الرضا على وجوههم، هذا الانطباع أعطاني دفعة للتقدم، وقرروا جميعًا نقاش كل النقاط الهامة، حتى أني قد تعبت في النهاية من كثرة توضيح الأشياء.

لم يتعدوا السبعة ورغم ذلك سألوا أسئلة تفوق عددهم بكثير. أُبدى الكثير منهم الاهتمام بما أقول ثم حانت لحظة الدرس العملي لم يكن عليّ سوى النظر عبر النافذة المفتوحة، لم تكن هذه المَرَّة هي المَرَّة الأولى التي أتأمل أمام جمع كبير فقد فعلتها قُبلاً مع ذلك الوغد الأشقر، فلم أتوتر كثيرًا لهذا.

اختلستُ النَّظرَ إلى "ممنفيس"، لاحظت أن فردًا من هؤلاء الكهنة الصغار لا أروقه، إنه "راميس" شابٌ لا بأس به، ولكنه لم يُبدِ أي إعجاب بي، بل على العكس لقد أظهر تجاهي مشاعر منفرة، حتى إنني تعجبتُ لذلك كثيرًا. تجاهلته تمامًا وأنا أنظر عبر النافذة واندمجت بكل خلية من خلاياي، حتى أني شعرت أن قوةً كبيرةً كالجبلِ تجتاحني ثم نظرت إلى "ممنفيس" التي ابتسمت عند التفاتي وارتفعنا معًا، أما عندما نظرت إلى "راميس" فكان من الواضح دهشته وكراهيته في آنٍ واحد، ولا أعرف ما حدث

بالضبط لقد كانت فكرة أو أشبه بخاطر، وجدت "راميس" يُنَفِّذها بغباء، لقد دار حول نفسه دورة كاملة، وكأنه يولّد الرياح وقد فرد ذراعيه وباعد بين ساقيه. التفت إلى "ممنفيس" المذعورة، وعندما نظرتُ إليها سقط هو وقد اختفت نظرة الكراهية تلك وحلت محلها نظرة خوف نحوه.

قرَّرتُ أن أفتح سبيلاً للنقاش مع "ممنفيس" في هذا الموضوع، لمَ يكرهني هذا الشاب؟ خاصة بعد أن وافق كبير الكهنة على النقاش حول تعييني معلمًا لهم في هذا المجال شريطةَ أن يعلمني هو الآخر ما عنده، وسيصل الرد بعد يومين أوثلاثة.

سرتُ أنا و"ممنفيس" في الحديقة الخلابة متجهين ناحية الحديقة العامة للمعبد الغربي قابلون! ثم تساءلت عمن يكون هذا الشاب، فأجابت بمقدمة أصابتني بضجر فاجأني:

- " صعبٌ على الفتاة ذكر شاب أُعجب بها بل وعرض عليها الزواج يومًا . "راميس" ينظر لي كامرأةٍ تُضيّع شبابها في دراساتٍ ليست لها فائدة لعالمها الخاص فقط "الزواج والولادة"، كان يعتقد أني أُحبُّه خاصةً وهو يرى نفسه وسيمًا .. لا

أعلم حقًا لماذا لم أُعجب به؟ يبدو أن نظرته المقحِمة لما يخبأ خلف عينيّ، أو أسلوبه الجاف المميز حقًا لا أعلم.."

ثم نظرتْ إليّ، لم تكن مستمتعة بالحديث عنه معي، لم أرد عليها مباشرة بل تطلعتُ إلى المسير وسارعتُ الخطى ثم أبطأتُ فجأة قائلاً:

-إذن فهو يحبُّك، يراكِ زوجةً له... هذا يفسر كل شيء.

-لا إنه يستمتع بأهميته ومكانته التي أحرزها في وقت وجيز، خاصةً وهو نابغ في علوم الكيمياء وقد تعلم التحنيط على يد "بابو الكبير".

-مَن بابو الكبير هذا؟

-ليس هذا؛ إنه أبو الكيمياء الحديثة يحترمه الكل هنا، وأنا أولهم. لقد بلغ من علم التحنيط ما لم يبلغه غيره في عصره غير أنه كان هناك عيوب.

-كان هناك عيوب؟

-نعم، فـ"راميس" حاول تفادي هذه العيوب ليعمل مزيج يجعل من الجثة جثة حية آلاف السنين أما بابو الكبير فخلطته لم تتجاوز مئات السنين فقط.

ومع نظرة الدهشة شرحتْ:

-"نعرف بحسابات بلغ فيها "حوريس" مبلغه فهو داهية في الحساب والفلك."

وصلنا إلى المعبد حينها، وقد وجدت أنّي -إن وافقوا- لن أدرس لأناس عاديين أو فوق عاديين بل أعلى من ذلك.. لقد أحببت المغامرة، وبالنظر إلى "راميس" و"ميناويس" الصغير سنجد إنني سأشهد تمردًا صريحًا عليّ وأنا لا ألوم أحدًا فأنا أقل منهم خبرة في كثير من النواحي، ولكن مهلاً إنهم لا يعلمون شيئًا عن التأمل الذي أحبه وأتفوق فيه نحن متساويين إذن ولكنها بلدتهم، عالمهم، أواه! لن أَصِل إلى شيء حتى يأتي القرار بأهمية هذا العلم لهم، على الأقل سأدرس إلى أطفال إن لم يوافقوا.

بعثت برسالةٍ إلى "هيودو" أشرح له فيها تيكاتي الحرجة في انتظار هذا القرار، بعث لي بهدية "خولا" وتمنى لي حظًا سعيدًا، لم يكُف عن ذكر هديتي له في كل كتاباته، وكم سعدتْ "شنسن" زوجته.

وأخذتُ أفكر فيما صارحتني به "ممنفيس"، لابد وأن تأخذ قصتي معها منعطفًا آخرًا لقد تقدم لها شباب بالفعل ما عداي أنا.

أتراها تنتظرني؟ لم أقدر على سؤالها، وبدا لي أن كل شيء أتوهمه، وأنها تفعل هذا من أجل العلاج مما زاد حالتي سوء في تلك الأوقات العصيبة.

كان المصريون يتوقون للعلم، ولم يكن ليفَوّتوا مثل هذه الفرصة بالطبع، واقفوا أملاً في اكتشاف أسرارًا جديدةً عن البيئة، كان أول يوم مقلق جدًا، وكان "راميس" مشاغبًا كبيرًا غير أني سيطرت عليه في الوقت المناسب بعدما أثار غضبي بتلك النظرات المنفرة لاجئًا إلى نظرةٍ صارمةٍ للأعشاب ضاربًا بعيني جسده فطارتْ الأعشاب لتحط على وجهه مزيدًا من الشوك والسوائل المريرة، وبالفعل تعلم كيف يجلس حتى انتهيت. كان عليَّ أن أشرح لهم مبادئ صغيرة كالتركيز، وكان واجبهم جلسات التركيز ومراجعة ما قلته، أحسست أن وجودي يؤلم "راميس" غير أن غضبي لم يجعلني أشفق عليه، وهو من يكبرني بنحو سنتين فقط.

على أيَّةِ حالٍ كنت معلمًا صارمًا وطالبًا مجتهدًا، وعندما أطلب من "ميناويس" الانتقال إلى منزل آخر كان يعنفني قائلاً:

-أتود أن يقول أحد إنني لا أحتمل ضيف بلادي وصديقي في بيتي إنك كابني فلا تجعلني أغضب.

كان عليَّ التفكير الجدي في الزواج من "ممنفيس" وبالفعل أخذت أفكر، ولكن تلك الفكرة لم تكن تبرز للسطح حتى آخذ رأي "هيودو" و"كازيتا" فأمرُ الزواجِ ليس بالأمرِ الهين ومهما يكن لابد وأن يكون هناك من أرجع إليه. عمدت إلى كتابة الخطاب، ولم أنسخ نسخة لـ"هيودو" بل بعثتها باسم الاثنين، تمنيت لو أستطيع العودة إلى "بيدور"، لو كانت "ممنفيس" هناك وتزوجنا، كم أتمنى أن أعجِّل بالأمر وأتزوج. أوه! يا للبرية التي أحيا فيها وحدي!

جاءني الردُّ بعدَ يومين كانا من أسوأ أيامي؛ فجزء من الكهنة أصبحوا يتمردون أكثر من ذا قبل، وكان عليّ عقابهم بشدة ولكني لم أكن مرتاح لهذا أبدًا، وكانت دروسي خاصة في الحساب والفلك الفرعوني قد تعمقا حتى أني كنت أبذل مجهودًا أكثر لأستوعبهما جيدًا.

لم أقدر على فتح الرسالةِ صباحًا واحتفظت بها حتى المساء، ثم فتحتها كانت هناك تحية عادية باسم الاثنين لم تكن رسالةً

طويلة، ولكنها تتضمن موافقة وبلا شروط وكلمات عزاء لعدم قدرتهما على الحضور، وتمنى "هيودو" أن نتحرر حتى أرجع بلدي، غير أني لم أكن مرتاحًا جدًا فلم أقدر على فتح موضوع الخِطبَة حتى بعد مرور أسبوعًا على موافقة "هيودو" و"كازيتا"!

كيف وأنا وحدي وفي بلاد غريبةٍ أطلب مثل هذا الطلب؟! من سيحضر بِنَاءً على توكيلي له من سيتحدث في التفاصيل، أحسست بإنني وحيد ولأول مرة أشعر بتلك الوحشة الرهيبة تجري في عروقي وتقف غُصة في حلقي؛ ولم أقدر على فتح الموضوع.

تزايدت المضايقات في درسي من قِبَل "راميس" وكأنه يعرف بما سأقدم عليه، والغريب أنه بمجرد تلميحه للزواج من "ممنفيس" قوبِلَ من ناحيتها بالصدِّ فلماذا كل هذا التحكم؟! أنهيت دروس الرياضيات أخيرًا. لا بأسَ بي كما قال معلمي "حوريس"، وغدًا سأبدأ دروس الطب، وقد ألححت في طلب دروس نفسية من "ممنفيس" غير أنها كانت تتهرب وكأن دراستي لها ستزيد حالتي سوءً.

لم أكُن أدرس معها الرياضيات، فلم تكن ضليعة فيه، وقد كنت أجد كثيرًا مضايقة عند غداتي ورواحي من "راميس"، وكنت آمل أن تساعدني في دروس الطب، وبالفعل لم تخيب ظني.

توطدت علاقتنا وكلما نظرت إليها شعرت بأني أصل للقمر. آهٍ! يا لها من ضحكة! خفتُ بل ارتعبتُ حين وجدتُ أحدهم يتقرب منها، أخذت أقول لنفسي ما ينقصني شيء، سآخذها معي إلى "بيدور" لترى قيمتي الحقيقية هناك، وبالفعل سرتُ إليها، بينما هي تقف بجوار النافذة وعندما نطقتُ باسمها التفتت إليَّ بكل كيانها، لم أجدها أجمل من هذا، رقَّ قلبي وارتعد في مكانه؛ فاحمرت وجنتاي والغريب أن ذلك الاحمرار انتقل إلى وجنتيها، ثم قلت لها:

-أريد أن أتحدث معك في موضوعٍ هام.

-تفضل.

وكأنها أحسَّت بتوقف أنفاسي:

-أتحب أن نخرج إلى الحديقة.

-يالها من فكرة صائبة!

قلتها باندفاع بل وتركتها ورائي وكأني أهرب منها ولست أنا من يطلب يدها، أصبح لون عينيها الأخضر لامعًا خاصةً مع تلك الورود النادرة الحمراء والصفراء، ولون الأعشاش الخضراء، وأحسست أن ملء عينيها الأمل، أمل في سماع صوت الحب يرفرف، لم أكن أبادلها كلمات الحب؛ فقط نظرة حانية من عيني تكفي، وهي لم تشكو والغريب إنني أحيانًا لم أكن أسيطر على الوضع في وجود أبيها ورغم ذلك هو متفهم جدًا، فهل سيرفضني؟ سأترك "مصر" وأذهب إلى "بابل" إن فعلها... عندما بلغت هذه النقطة تقابل حاجباي فظهر الاندهاش عليها وأخيرًا حسمت أمري قائلاً بعدما استنشقت هواء الحديقة المنعش.

-"ممنفيس"، أتتزوجينني؟

لم ترُد وأحسست بجسدي ينتفض، خاصةً وقد جَمُدَت كل عضلةٍ من عضلات وجهها دون أن تقول شيء، جمَّد المشهد وأحسست إنني على شفا الهاوية، وجاء خاطرٌ يقول سترفضك فازدادت حالتي سوءً.

obeikan.com

"الفصل الثامن"

كادت وجنتاها أن تنفجر ولم تقدر على النطق، ولأول مرةٍ أشعر أنها لم تسيطر على مشاعرها، بل وأحسست إنني سأفتقدها بهذه الطريقة؛ فقلت بعزم:

-"ممفيس"!

وكإنني على شفا الغرق أو شيء من هذا، أما هي فعندما رأتني في قمة الانفعال وكدت أن أهزها بعنف، انتفضت وكأنها تستيقظ من حلم، وازدردت لعابها ثم أجابت وكأنها لا تعني ما تقوله:

-ماذا؟!

فأَعَدْتُ عليها ما قلت:

-أتقبليني زوجا لك؟

وعلى وجهي ابتسامة مرتاحة.

-نعم.

obeikan.com

-أقولها ثانية؟

-لا .. نعم؛ أوافق.

لم أشعر بنفسي إلا وهي بين ذراعي وأدور بها في الهواء، ثم نظرنا معًا إلى ما حولنا من أشجارٍ وفي وقت قصيرٍ جدًا كنا نرتفع والأعشاب والورود تتطاير حولنا وكأنها رطوش لوحة زيتية. ضحكنا معًا كثيرًا ولم نكن نريد النزول، وأخيرًا نزلنا وملأت عيناي بجمالها، ثم فجأة اصطدمت بالواقع. هل سيوافق أبوها؟ كانت متفائلة جدًا غير أني كنت قلقًا ولم أذكر شيئًا عن عزمي على الذهاب إلى "بابل" إذا رفض، كم كان قرارًا أحمقًا!

عندما تنتظر شيئًا لا يأتي بسهولة، تأخر "ميناوس" كثيرًا هذه الليلة، وكنت أخشى إذا لم أفاتحه في هذا الموضوع ذلك اليوم قد أخسر نفسي للأبد.

كنت قد اتفقت أنا و" ممفيس " على أن تقبع في حجرتها. جاء " ميناويس " ومن حسن حظي لقد كان في سعادة كبيرة على غير العادة، فهو رجل راضي دائما عن واقعه، ولكنه ليس سعيدًا به، وسأل عن "ممنفيس" فأخبرته أنها نائمة، وأنا

أعرفُ جيدًا أنها لن تستطع على النوم، إما أننا لن ننام هذا اليوم من الفرحة أو من خبيه الأمل. "ممنفيس" ليس من النوع الذي يهرب مع من يحب وكذلك أنا، لذا فسأترك كل شيء وأهيمُ على وجهي. تناول العشاء ولم أقدر على مسايرته بتبادل العشاء معه، أخيرًا بعدما انتهي منه جلستُ إلي جواره على الأريكة الكبيرة ثم قلت له أني أريد زواج أبنته. لم يُجِب على الفور بل قال:

-آخبرتَ "ممنفيس" بهذا الأمر؟

-نعم.

-وما رَدُها؟

تشككت في موافقته وتوترت أعصابي، فترددت قليلاً ثم قلت له الحقيقة:

-لقد وافقت.

-وهل تعتقد أني سأرفض؟

هنا انتفضت وافقًا ولم أُجِب.

-أراهن على أنكما لن تناما من السعادة.

-ماذا؟

بمنتهى التلقائية خرجت من فمي، أمَّا هي فقد فتحت باب حجرتها بعنف، ثم ارتمت بين ذراعي أبيها، وكما قال لم نستطع وهو معنا على النوم من فرط السعادة. أقنعت نفسي أن "راميس" لا يشكل خطرًا كبيرًا كل ما يفعله مجرد ألعابًا صبيانية وسخرية العجزة.

كانت موافقة مبدئية ولم نحدد شيئًا بَعد، وقررتُ أن أبتاع منزلاً في الجوار، له حديقة كتلك وأصبحت ذى مكانةٍ عريقةٍ بين العلماء والكهنة، كل هذا من تفوقي في التأمل، أخيرًا أخذت شيئًا ملكي كانت شهرتي هناك، لأني ولي العهد أما الآن كم كنت أشعر بسعادة وأنا أكافح! ما أقلقني هو رد فعل "راميس" كان هادئًا جدًا أما الجميع فقد هنئوني بحرارة، ولم يبدُ من "راميس" أي حركة ولم يعد يأتي للمنزل، أحسست بأنه يدبر شيئًا ولكني كنت مقتنعًا أني أهوّل الأمور، ورغم أن "ممفيس" كانت قلقة إلا أنها لم تتكلم في هذا الموضوع أبدًا فقط في مرة سألتني:

-هل تحتفظ بصندوق "قابلون"؟

-نعم... لمَ؟

-لا شيء.. لا أعرف.. لقد طرأ هذا السؤال على خاطري فجأة.

ثم ابتسمت في هدوء، كنت آمنا في هذا المنزل غير أني شككت في الخادم الجديد "تانيس". كان قد ولد في هذه المدينة الشمالية المصرية؛ لذا فقد سُمى على اسمها، ولكني شككت فيه رغم كل شيء، لم يحبني، ولكنه لم يظهر كرهًا ضدي.

تخبطت في الثلاثة أيام التالية بين ظنوني والأفكار الشيطانية، وحقًا لم أكن أعرف ما الدافع الحقيقي خلف حقد "راميس" علىّ. بالمصادفة قابلت "بوتو" جارنا هناك أخذت أتحدث معه في مواضيع كثيرة حتى ذكرت له "راميس" فقال بصدق:

-اتركه ولا تتعرف إليه، أو تتحدث معه إنه يحقد عليك.

-علىّ أنا؟

-نعم، لقد كان أبوه جاسوسًا لـ "فيكابو" التي احتلت بلدك، وقد قتله عمك "سنبارا" بعدما اكتشف خيانته ولخِسَّته اعترف بخطئه.. كان أبوه مصري ترك أمه، وهو هناك، وعاش في "بيدور" على أنه "بابلي" ولأنه كان يتقن لغة أهل بابل فصدقه عمك.

-"لشت" أبوه، لقد تزوج مصرية وأسماه بهذا الاسم لأنه يعشق "هليوبولس". أواه، يا ويلي! ما هذا؟ لهذا أنا لم أندمج معه منذ البداية، أو لأن نظراته كانت توقف غصات في حلقي.

-كان يريد "ممفيس" لسلطة أبيها، ولكنه يحب ابنة "دافو" "هيبارا" صاحب متجر "الأدوات الحجرية" وقد كانت له نفوذ قبل مجيئك؛ فاحذر منه أرجوك.

-هل سيقتلني مثلا؟

-أو يفعل شيئًا يفرق بينك وبين "ممفيس"، ولا أعلم بالضبط ما هو.. أتعرف وهو صغير في التاسعة قتل ابنة عمه بعنف لأنها لم تطعه وتصعد الشجرة وتركها بالقرب من الشجرة هناك ورغم كل محاولاتنا لاحتوائه لم يكن إنسانًا سويًا.

-شكرًا لك يا عم " بوتو" .. لا تنسَ فأنت أول المدعوين في حفل الزفاف.

فابتسم بفرحة وشكرني، ولكني شعرت بأن جبالاً رست فوق كتفي، لماذا لم تخبرني "ممفيس" بكل هذا؟ أتامل في إصلاحه؟ أم تخشي علىّ العيش في رعب؟ احنقتني الفكرة الثانية، وذهبتُ

غاضبًا إليها، والغريب أني لم أتكلم معها في أي موضوع، وقد عزمت على أن آخذ حذري من ذلك الخادم اللئيم.

عندما خلوتُ إلى نفسي بالليل أخذتُ أفكر.. من الممكن أن يضع السُمَّ لي، ولكن "سايس" من يدرس لي الطب إنسان حسن، ولن يستطيع "راميس" سؤاله أو سرقة سُم من عنده، ترى من هذا الخادم؟ مرَّ اليوم الأول ولم يتغير الخادم تجاهي كان كل من في البيت طبيعيًا فيما عداي.. كنت ألاحظ ذلك الخادم وبدقة.

أخذتُ في دروس الطب تشريح الجسم، والغريب أن "سايس" أعطاني الإسعافات الأولية يبدو أن الكل يعرف ويخاف عليّ، مرت خمسة أيام أخرى وقد بدأ الاطمئنان في التسلل إلى نفسي.

يومٌ مشرقٌ، كان على "ممفيس" زيارة مشفاها التي تعمل بها، وذهب "ميناوس" إلى الفرعون "أدوبيس" ووقفت الدروس لمدة أسبوعين. قررت "ممفيس" أن تأخذ أجازة خاصة لكي نذهب سوياً إلى "أهناسيا" والرجوع حتى نشاهد مراسم احتفال عيد الحصاد في مدينة "ابيدوس" التي بنت خصيصًا لهذه المناسبة.

ولـم يكـن يصـلني أي جـواب فيـه تقـدمًا كبيرًا للمقاومـة هنـاك فشعرتُ بالملل.

يومٌ طويلٌ شرعت على الكتابة فيه، وقد استولت على كل حواسي، كان يتعين عليها التأخر فهذا أخر يوم قبل الإجازة. جلستُ منكفِئًا على الكتابة نحو أربع تيكات كنت فيها انتفض إذا شعرت بذبابة تحوم حولي. ثم قررت بعد هذا التعب أن أذهب لأنام. غفوتُ للحظات ثم فتحت عيني فجأة، وجدت "تانيس" يرتب أغراضا مبعثرة في الحجرة، أخذت أراقبه وأنا على السرير ولا يبدو عليه أنه رآني، فجأة أقفل الباب ثم أخذ الملابس التي عُلّقَتْ وراءه، عصف بي القلق خاصة وأنه وضع الملابس أخر السرير. لا أعرف كيف نهضت ولكني التصقت بالجدار وفي لمح البصر ضغط بركبته على ساقي ويده على ذراعي الأيسر والصقها بالحائط –كان أعسرًا– توقف قلبي عن الحراك ولم يمهلني فرصة فقد طعنني طعنة أحسست معها أن رأسي قد تحطم، ولم أشعر بالألم في صدري فورًا وضغط على السكين حتى نفذت إلى الجانب الآخر. حتى الصراخ لم أقدر عليه تصاعدت مني آهً خافتةً بعدما أمنت جانبه. الصدمة أوقفتني، دروس التأمل لن

تفيد أنها تحتاج إلى دقائق قد تكون ثمينة، تحاملت على نفسي واستندتُ على الحائط ثم جذبت بذراعي السليمة صندوق "قابلون" بينما هو يستعد للخروج، وبما تبقى من قوة في جسدي ضغطتُ على البلورة.

لم أشعر بشيءٍ، ولكن "تانيس" أمسك بأذنيه، وكأن الضغط يرتفع فيهما وأخذ يضغط ويضغط عليهما. شعرتُ بالدفئ وأحسست بالآلام تتصاعد، من حسن حظي أن الطعنة كانت تبعد كثيرًا عن القلب، يبدو أنه لا يعلم شيئًا عن التشريح. ابتسمت رغم كل شيء، وأنهار جسدي على الأرض بجوار "تانيس" لم أفقد الوعي ولم أعُد قادرًا على فعل شيء.

فجأة وجدتُ "ممفيس" و"ميناويس" من خلفها تقتحم الغرفة، كاد الباب أن ينكسر ونزيفي لم يتوقف، وأي حركة تحرك السكين كانت تشعرني بآلام لا حد لها.

قالت في انفعال جارف:

- لقد رأيتُ ما فعل.

أغلقت جفنيّ ثم فتحتهما ثانية بمعنى الموافقة، فهناك رابطة دائمًا ما تنشأ بين الممارسين لجلسات التأمل فكيف الحال

وهما متحابان؟ نظرت نحوي بنظرةٍ ذات معنى بينما أنطلق "ميناويس" لنداء "بوتو" والجيران لينقلوني إلى المشفى.

-آسفة، سأفعل هذا حتى لا يسمِمُكَ السكين.

نظرت إلى عينيها بثبات فجمعت قوتها لتخرج السكين، شعرت بالاختناق والضغط على رأسي يزداد من قوة الألم ولم أنطق، بينما أخذت هي تضمد الجراح وتنظر لي نظرات حب وإشفاق، ثم فجأةً أحسست أن كل عضلة من عضلاتي لا تستجيب حتى جفني لم يعُد يهمه أمري بالتراجع، وشعرت بالضعف يدبُ إلى جسدي، ثم سمعتها تصرخ أن الحمى أصابتني وتُهْتُ في ظلماتٍ بلا حدود.

استيقظت بعد يومين رأيت "ممفيس" متعبة وحول عينيها هالتين سوداوين وقد زينتهما دمعتا حزن. يبدو أنها لم تستوعب أني استيقظت. كان ألما فظيعًا لم أتجاهله، ولكن يبدو أن إحساسي قد طغى على الألم، فقلت وصوتي متحجرش محشورًا في حنجرتي:

-لا تبكِ، لقد أفقت.

كلماتي البسيطة ردت روحها إليها، وشعرت بالآلم تزداد.

-ألم.. تأ.. كلي؟

-لا .. لا تجهد نفسك كثيرًا في الكلام إن حالتك مستقرة وستُشفى قريبًا إن أخذت قسطًا من الراحة.

لم أقدر على التظاهر بالصحة فقد كنت أحتاج الكثير من الراحة، نظرتُ إليها نظرة باسمة كانت متعبة فعلاً، ثم نمتُ في سُبات وقد غَفَتْ وهي واضعة رأسها على ساقي اليمنى. شعرت بمدى قُرْبِنا، رغم إنني كنت مندهشًا، لماذا لم يظهر "ميناوس" حتى الآن؟!

لم تمُر نصف تيكا حتى استيقظتْ "ممفيس" وكأن شيئًا أفزعها، وارتبكَت كثيرًا عندما علمتْ أن رأسها كان على ساقي، أحسستُ بها ولم أعلِّق على شيءٍ فيما تفعله، كانت عودتي من موت محقق، إما النزيف أو بطعني مرة أخرى تجعلني أتقبل أي شيء ولا اهتم للآلام برغم أني شاعر بها. كنت كل يوم أحاول تحريك ذراعي الأيسر، كم كان مؤلمًا. لقد حاولتُ كثيرًا ولكني لم أقدر.

تمَّ القبض على "راميس" بتهم عِدَّة لم أتذكرها من كثرتها، واندهشتُ كثيرًا، لماذا كان يعمل في هذه المهنة الحساسة؟ لكني لم أجد الجواب أبدًا، كان "ميناوس" مستشارَ الفرعون يرتب

للقبض على "راميس"، ولم يأتِ المنزل منذ أسبوع؛ لهذا كان غائبًا عني. والغريب أنه عندما أخذت ذراعي بالشفاء كان يؤلمني بشدة من الخلف أكثر بكثير من الجهة الأمامية، لم أعرف لماذا مع أن الجرح من الأمام أكثر طولاً من الجرح الخلفي؟!

كان "ميناوس" و"ممفيس" والخدم يخبئون الرسائل التي يبعث بها "هيودو" و" كازيتا "، لم يقرأ "ميناوس" منها سوى خطابًا واحدًا كُتب عليه (رسالة عاجلة) كنت أنا في غيبوبة وحين استرددت صحتي قرأت:

عزيزي "ديور"،

احذر من شخص يدعى "راميس" إنه خطر للغاية، لقد بعث للعدو بمكانك ولكن لا تخف إنه لا يعرف "الخولا " فلن يستعملها، وقد طاردت حمامة كانت تحمل مكانك بالضبط في "مصر" وأمسكت بها بسهولة، لا تقلق لا أحد يعرف مكانك.. لقد أرسل شخص إلى بلادنا ليخبرهم، ولكننا أسرناه واعترف لنا باسمه، إن كان يعني لك شيئاً فابتعد عنه.. "هيودو "يحييك ويرجو أن تبارك ابنه الأول" ديور "ويقول لك" متى زفافك؟"

لا تحـزن لأنـه لـم يكتـب لـك فـنحن في مرحلـة دقيقـة الآن، وسنخوض المعركة الأولى قريبًا؛ إنها المعركة الحقيقة، قد تنجح وقد تفشل.. ادع لنا بالنجاح.

معلمك "كازتيا"

معركة حقيقة.. ليتني كنت معهم، بدلاً من أن أرتاح هنا، وتَّرتني تلك الرسالة وأصابتني بالحزن، أين أنا في تلك الأحداث؟ ماذا سأفعل لبلادي؟ لا شيء.

كانت فترة دقيقة بحياتي كدت أخسر فيها نفسي، وربما كدت أفقد فيها "ممفيس". أحببت "ممفيس" أكثر وأكثر خاصة، عندما احتوتني في تلك الفترة، وشعرت كم أنا غالي عليها. بعد فترة انقطعت فيها الرسائل قررتُ أن أتزوج بعد أسبوع، خاصةً وإن كان كل شيء جاهزاً، فلمَ لا نتعجل؟

obeikan.com

"الفصل التاسع"

لم أرَ جمالاً وسحرا كتلك العينين لقد أسرتني حتى وإن تشابهت في خطوط النيني مع غيرها؛ فإن نغماتها تعطي طابعًا خاصًا لا يغفله أحد، لم أكن أتصور أنه يوجد أجمل منهما إلا في تلك الليلة، لقد زادت جمالاً وزادت وجنتيّ احمرارًا، كانت تلمع بفرح لم أعهد مثلها، كنت أحبها وما زال حبها ينبض في قلبي، من الممكن أن تكون تلك الليلة خاصة، وبعد قليل عيناها ستصبح خاصتي، إنه اليوم الذي انتظرته طوال عشرين عامًا أو أقل قليلاً.. يوم الزفاف.

في إحدى البيوت الفرعونية الفاخرة -حقيقة كان بيت أبيها الرسمي للاستقبال والمراسم- يتكون من طابقين، سُلَّم فاخر زُيِّنَ برسومٍ فرعونيةٍ اعتدتُ على رؤيتها في كل مكان، حتى إنني كنت أتخيل أحيانًا أن السُّحبَ هي الأخرى أصبحت على شاكلة تلك

الرسوم، التي كانت لا تدعني أفتقد سماء "بيدور"، لكنها في ذلك اليوم لم تشعرني بذلك الإحساس، ولأول مرةٍ أشعر أن مكان الحب موطني، وعشقي هو انتمائي.

كنت أرتدي زيي البيدوري الذي أحبه، غير أنه ليس ككل يوم يزيد عليه رابطة من القماش البرتقالي، لتدل على أني بيدوري متزوج من أجنبية، وكم كانت تعني لي تلك الكلمة مشاعر عجيبة لأول مرة إيجابية! لم تقلل من نظرتي لها اليوم ستصبح ملكًا لي وحدي. أوه! مشاعري كالطيف، وبرغم كل شيء صمَّمت على عدم العودة إلى الدواء؛ فأنا رجل كامل ولست طفلاً، لا أعرف إن كانت نظرتي مبالغ فيها، ولكني شعرت أن هذا هو الصواب. ببطء نزلتْ على سلالم الفراعنة هذه بالزى الفرعوني المعتاد وبتلك القصة الرسمية، إلا أنها ولأجلي وضعت شريطًا حول خلصة مضفرة من شعرها صفراء؛ لتعلن أنه مرسم بيدوري من حفل غير تقليدي - سواء على المستوى المصري أو عندنا.

كل خطوة تخطوها تقترب بها من قلبي، تعتصره وكأنها رَحَي الحرب، تصاعدت الحمرة إلى وجنتي، حتى إن كل الموجودين صفقوا لنا عندما وصلتُ إلى آخر سلالم البيت الواسع، لم

أحتمل ولم أفكر، حملتها ودرتُ بها دورة كاملة، كانت تضحك من قلبها بصوت على كل الأصوات الأخرى حتى أنه غطى على ضحكتي، أنزلتها والغريب أني لم أشعر بأي تعب إلا عندما وصلت إلى بيتي، ولكن هيهات لقد غلب الفرح على أية مشاعر سلبية، وصفق الجميع مرة أخرى فضمتها إلى صدري، وهنا انتبهت لنظرة ميناويس المحذرة نحن وسط الناس الآن، احذر! ارتبكت للحظة شعرت بها ممفيس فهمست في أذني:

-سنذهب إلى المعبد... هيا بنا!

مع نظراتها الدافئة اجتزتُ الموقف، ومررنا أنا وهي ثم أبوها ومن بعدنا الناس -على وجوههم السعادة- لنصل إلى المعبد، وهناك استقبلنا " بوتو" - وكأنه والدي- وانضم إلينا "ميناويس" ومن خلفهما الناس وعلى أيدينا يمينًا ويسارًا شبابًا نذروا أنفسهم للمعبد، وعندما وصلنا إلى البوابة الكبرى فجأة كُتِبَ بالنار اسمي ثم اسم "ممفيس". ارتددتُ للخلف لكن "ممنفيس" كانت هناك تشد على ذراعي وعلى وجهها ابتسامة، فضحكتُ بمرح غير أن هذه المفاجأة أثرت على نبضات قلبي الفَرِح.. ودخلنا.

هناك على المنصة الكبيرة الموضوعة منتصف الحجرة الضخمة الفخمة، كان يجلس الكاهن الأعظم وعلى يده اليمنى كبير الكهنة، وإلى يساره شخص لم أكن أعرفه غير أن ابتسامته الدافئة طمأنت قلبي، وعندما وقف الكاهن الأعظم انقسم المدعوين إلى نصفين، وبنظامٍ غريبٍ كل منهم ناحية الجدار المجاور له تاركين "ممفيس" وأنا و"بوتو" و"ميناويس" ثم أخذني "بوتو" في نفس اللحظة التي أخذ "ميناويس" فيها ممفيس، وتلى الكاهن الأعظم كلاماً بلغة غريبة، بدت لي وكأنها "الفرعونية القديمة"، ورغم ذلك مَيزتُ كلمات قلائل "زيجة .. قداس .. حب .. نبارك" وعندما نطق الكلمة الأخيرة دفعني "بوتو" كما دفع "ميناويس" "ممفيس" إلى أن تقابلت شفاهنا وقَبَلْتُها لأول مرة وأمام الناس وهي زوجتي، وأعلن كبير الكهنة:

-إنهما زوجان.

كانت ليلة لن تنسى رغم إرهاقنا أنا و"ممفيس"، لم أعرف أو لم أفهم لمَ تذكرتُ الحرب في تلك الليلة، تلك الحرب الدائرة التي ستحمل مصير الكثيرين، حتى "ديور" الصغير، حاولت أن أرمي

الأمر برمته لكن "ممفيس" التي تعرفني أكثر من نفسي فنظرت إليّ، وقالت لي:

-أتَفَهَّم شعورك جيدًا.. أنت تفعل أشياء عظيمة هنا .. حسنًا أهمها أنك تزوجتني، أليس كذلك؟

ابتسمت لها وحقًا لم أكن أعرف ماذا عليّ أن أفعل؟! لكن "الخولا" المسافرة من "بيدور" انقذت الموقف حاملةً لي أخبار الحرب، ودخلت من النافذة مرفرفة، وقد وقفت على يدي، وبلهفة الدنيا فتحتُ الخطاب ثم نظرتُ بحرج إلى "ممفيس" غير أني وجدتها تنظر هي الأخرى بلهفة، فجرؤتُ على فتحه، لأقرأ: إلى ديور..

أبشرك كدنا نصل إلى مبتغانا، إلى الآن نحن منتصرين، آسف لإنني بدأتُ بأخبار الحرب، قبلما أهنئك على زفافك، في الصفحة التالية كتب لك "هيودو" لا تغضب منه إنه لم ينسك أبدًا، لكنه كان مريضًا قعيد الفراش، أمَّا الآن فلا تقلق عليه لقد شُفي. آن لك أن تستعد للرجوع.

"كازيتا"

عزيزي ديور؛

أعرف كم أنا مقصرٌ في حقك، إنني لم أر ديور الصغير قبل اليوم صباحًا بعدها كتبت إليك؛ لأصف لك سعادتي بحالة الحرب، وأذكر لك كم ازداد حبي له! عندما رأيته نسخةً منك.. لم تبرح رسمتي لوجهك جيبي، لن أنساك.. أعرف كم تشتاق للعودة، ولكن رغم أن الأوضاع مبشرة أخاف الخيانة من صفوفنا، لا أعرف لماذا يثق كازيتا بكل شيء؟، صحيح أن شيئًا لم يحدث ونحن نتقدم خطوة بعد أخرى، إلا إنني .. لا شيء لا تشغل بالك.

أتعرف أن "شنسن" حامل ثانيةً أهي بنت؟ أم ولد مرة أخرى؟ لا أعرف، أبعثْ لي بالاسم الذي تريده، إن كانت بنتاً أو ولدًا لأسمّيه، كما ستقول "ديور" أعرف أنك تحتاجني الآن ولكني للأسف بعيد عنك كثيرًا أعذرني فأنا لست بجوارك أخي الصغير.

"هيودو"

كان من المفروض علىّ أن أكون أنا بجواره... اعتصرت العبارة قلبي خففتْ عني "ممفيس"، فأدركتُ أنها ليلة غير مناسبة للحزن، حقًا لقد تزوجت في ظروف معقدة، ولكن يبدو أن إحساسي بالعجز هو الذي أدى إلى اتخاذي هذا القرار.
نظرتُ إليها بمنتهى الحب وهي بدفء وحنان ثم تركنا كل الأمور خلفنا كل الأمور، وواجهتُ العالم لأول مرة وأنا مالكٌ لها؛ سيدُها.

****

لا أنكر أن قرب عودتي إلى "بيدور" يشعرني بالراحة ومتعة لا حدود لها، غير أن المرارة من عدم رجولتي الكاملة تنغص علىّ كل فرح، فلا يوجد رجل يخاف! كان يومًا مشرقًا وحولتُ غضبي ومرارتي إلى قوة كامنة اتحدتُ مع شجرة قرب

منزلي، أوصلتني إلى قاعة الدرس ليس بسرعة خرافية بل الغريب إنني اجتزتُ الجدار دون أن أفعل شيء أويحدث لي شيء، لم أقف كثيراً عندها بعدما دونت تلك الملاحظة، وما زلت أدرس "تأثير علم التأمل وعلاقته بالحالة النفسية والصحية للفرد" كانت دراساتي تلقي صدى مصري رهيب شجعني على الاستمرار.

لم أخفِ دهشتي على كبير الكهنة الذي انتظرني ليهنئني أمام الجميع، ويعلن للكهنة عن هدية قدمها لي، كان الجرح الذي تركته الطعنة قد شفى منذ شهور تاركاً ندبة، غير إنني عندما أمسكتُ بذلك الصندوق وجدت كتفي يؤلمني بشدة حتى إن الصندوق وقع، وبدت مني صرخة ليست مدوية، لكن أثرها كان رهيباً، فقد تكتل حولي كل الكهنة، وبينما جلس كبير الكهنة بمنتهى الهدوء، وأنا اتألم امسكتُ كتفي بشدة، وأنا على الأرض. كشف "سايس" عن كتفي ورأيت شيئًا عجيبًا، كانت النُّدبة تنفتح دون أن يسيل منها أي دم، ونظر إليَّ "سايس" بمنتهى الدهشة، ثم نظر إلى كبير الكهنة نظرةً لها معنى، بعدها أمر كل من كان حولي بأن يبتعد، ثم قرب مني الصندوق بل وألصق يداي

بـه، وأخـذتُ أصـرخ ثـم نظـرتُ بمنتهى الفـزع، لأجـد أن النديـة تتلاشى عنـدها فهمـت ووجـدت كبير الكهنـة يبتسـم لي، تحملـتُ الألم، أنها ندبة كانت تشهد على ما حدث هنا. هرب مني صوتي إلى أن اختفت تمامًا، وفجـأةً شـعرت ببرودةٍ شـديدةٍ ارتجافـة لا أقـدر على السـيطرة عليها، سـاعدني "سـايس" وكبير الكهنـة على القيام، بعد نحو ربع التيكا كان كل شيء على ما يرام. كانت هذه هدية الزواج!

عدتُ باكرًا، وكانت "ممفيس" في البيت انزعجتْ عندما رأتني وكادتْ أن تهمني بالكسـول لكن عنـدما كشـفت عـن كتفي بدت منها صرخة فرح وقالت لي:

-وأعطاك "صندوق الحياة".

ثم ابتسمت، وأكملتْ:

-إنك قوي.. ها أنت ذا بخير.

-لم تريني وأنا هناك ارتعش.

-إذن: ادخل وارتاح وسأوافيك بعد قليل.

دخلـتْ ومعهـا دجـاج مطهـو بطريقـة بيدوريـة بتوابـل مصـرية خطيرة، وأرز شـهي، ثم جعلتني أدثر ببطانية وأرقدتني رغمًا عني

حتى غبتُ في ظلمات النوم، عندما استيقظت كانت هي قد أشرفت على ترتيب المنزل هي والخادمة الجديدة "سمكوزي" وفي طريقها للغرفة كي ترتاح، لم ترقد كاملاً وهي تبتسم وكأن لديها خبرًا سعيدًا أكثر سعادة من اختفاء تلك الندبة! فقلت لها:

-أتعلمي؟ أنا محتاج فعلاً لخبر سعيد.

وكأني لم أحدثها:

- أراسلتَ "هيودو"؟

-لا حتى الآن، أأرسل شيئًا؟ هل انتصرنا في الحرب؟

-قريبًا؛ قريبًا يا حبيبي.. لا؛ لا ترسم خيبة الأمل هكذا. ابحث عن اسمين لا عن اسم واحد.. أنا حاملة لطفل "ديور".

والغريب ورغم مشاعري الكبيرة تجمدت في مكاني، ولم أعلق لمدة تزيد على دقيقة كاملة، أصحيح سأكون أبًا؟ أب! وأين سيعيش ابني في "مصر" أم في وطني "بيدور"؟ طردتُ في تلك اللحظة ما في المسألة من سلبية، ونظرتُ إليها بمنتهى الحب، وقد ارتسم على وجهها معالم الانتظار ثم انتابتني السعادة فجأة، وضحكات أسعد ضحكات لتملأ الغرفة، ثم احتضنها؛ أخيرًا سأكون أبًا.

لم يحدث شيئًا ذا قيمة في الخمسة أشهر التالية سوى تبادل الرسائل و"هيودو"، بعثتُ إليه إنني سوف أسمى ابني - إن كان ابنًا - "هيودو" عرفانًا له بالجميل، وأن كانت امرأة سأسميها علي اسم أمي، أما بالنسبة لأخبار الحرب كانت مؤلمة. لقد انتصرنا عدة معارك غير أننا لم نحسم الأمر بعد، فقد التجأ الفيكابيون إلى مغارة الليل "قرة" تلك المغارة العالية التي ترتفع لأكثر من ٣٢٠٠ قرونة عن سطح الأرض، مغارة يصل إليها الماء من ينابيع بداخلها، ورغم محاصرة "هيودو" و"كازيتا" لها إلا أنهم مكتفون ذاتيًا، لم يخسروا حتى الآن سوى معركة واحدة وإلى الآن لم يحسموا الأمر، كل هذا يجعلني في توتر كبير، فمن الممكن أن يضربوهم هؤلاء المحتلين بالـ "نبال العظيمة"، فيقضوا على الرجال أو يخونهم أحد كما يظن "هيودو" حينها لن يَعُد لنا قائمة إلا بعد قرون أخرى أو يزيد. نظرة تشاؤمية أعلم ولكنها.. لا أعرف، إن "ممفيس" حامل ولن أوّترها، جاء "سايس" معي ليطمئن عليها ونحن بالطريق تشاورت معه:

-ما رأيك بجلسات تأمل معها؟ من الممكن أن يصير بالطفل خارق أو ما شابه؟

فرد بصرامة:

-"لا، نحن لا نعرف العواقب. ألستَ مهتمًا بها أو على الأقل الطفل؟

صمتُ ثم استطردتُ قائلاً:

-أنت معي، ولن يحدث شيء إن وافقت، لن تُضَر. إنها جلسات لم تضرني مطلقًا، أرجوك، أرجوك "سايس".

-إن كنتما فدائيين.. لا تحمِّلاني ما لا أطيق.

وبالفعل عرضتُ عليها فكرتي، وما كنت لأسيطر على تلك الإثارة التي تتباني عند ذكر موافقتها، أنا الوحيد الأناني أما هي فقد وافقت و"سايس" لم يتحدث، لم يوافق، وكذلك لم يمنعنا.

بعدما أنهى الكشف عليها انتظر حتى تنتهي جلستي، لم يحدث شيئًا غير عادي في بداية التحام قوتي بقوتها إلا أن الدماء سرعان ما غلتْ في أعماقها، وسرتْ القوة بداخلها على نحو اضطرب له الطفل في بطنها تقلبًا عجيبًا جعلها تفزع، ولحسن الحظ أن "سايس" لم يبرح المكان، لم يحدث شيئًا خطيرًا سوى بطلان النظرية وسريان نظرية أخرى تحمل معالم جديدة، شهور كغيرها كلما مرت بطأت حركة "ممفيس"، وجاء معها ابن

"هيودو" الثاني وتوأمه؛ "كازيتا" و"كافيتا". كم أسعد "كازيتا" الأمر!، تمامًا كما حدث معي، أن تحب شخصًا شيء، وأن تسمى ولده باسمه شيئ آخر، ولم يعد أمامي سوى انتظار طفلي الأول.

في هذه الأثناء كان يخطط "هيودو" لاقتحام المغارة عن طريق سري صغير، وكان يحاول أن يحتمي ببعض الجبال التي تبدو أقصر كثيرا، إنها ليست جبالاً بل مرتفعات قصيرة، كان الوضع خطيرًا حاول أن يبعد قدر المستطاع، دام الحصار شهورًا، بدا فيه النصر قريب، أما أنا فكنت متشائمًا من وضعي، وكنت على أَحَرِ من الجَمرِ لمعرفة ما سيحدث، غير أن القلق ليس مفيداً لـ "ممفيس"، أوه!

يومٌ متعبٌ حقًا، ذهبتُ لغرفتي كي آخذ قيلولة قد تعودتُ عليها مؤخرًا، كان حمل "ممفيس" متعبًا بالنسبة إليها، وكان "سايس" يزورها للاطمئنان على الجنين وعليها، وكل يومين في هذه الأيام الأخيرة، من الممكن أن تلد في أي وقت وددتُ لو أخذتها إلى المشفى، ولكنها عنيدة. وبينما أنا أراجع ما يمر بي من ذكريات سمعت شيئًا يرتطم بأرضية المطبخ، لم أنزعج إطلاقاً،

بل قلت لنفسي لا تقلق يبدو أن "ممفيس" ستلد حقاً طفلاً جميلاً، هل سيشبهني أم يشبهها؟

استيقظت على صراخ "سمكوزي":

-استيقظ سيدي؛ أن السيدة تلد.

فجأة وجدت نفسي في المطبخ، وقد أمرت الخادمة أن تذهب سريعًا إلى "سايس" داعين ألا يكون قد ترك منزله لسبب أو لآخر.

obeikan.com

"الفصل العاشر"

كنتُ كلما نظرت إليها وهى تتألم بهذا الشكل أحس بشيءٍ يعتصر قلبي الذي كاد يكسر أقفاص الحديد ويخرج، عصف بي التوتر والقلق، ما زال صراخها مستمرًا بل أنه يزداد عمقًا وعلوًا، لم أعد أعرف ما الذي على أن أفعله.

كانت "سمكوزي" باردة الأعصاب -وهي المرأة التي أنجبتْ خمس مرات- لم تلجأ لتوقظني إلا عندما صرخت فيها "ممنفيس"، قالت إنها تعرف أن الولادة الأولى فيها مشقة، كنت أفكر لهذا بعث لي"هيودو" رسالة يشرح لي كيف أهدأ، وألا أهرب في موقف كهذا، إن الولادة الأولى تأخذ دائما وقتا أطول، تُري ألهذا العذاب نهاية ؟ أحسست بأن الألم يدق في رأسي مع كل آه تقولها، كانت هناك رابطة غير عادية بيني وبينها جعلتتني أتوحد معها إلي أقصي حد. فجأة وجدتُ "ميناويس" بدلا من "سايس"،

لم يكن باردًا وأيضا لم يكن منزعجًا بل عاونني على حملها إلي حجرتها بعدما صرختُ مهددًا "سمكوزي" لتذهب إلى "سايس"، كم كنت أود أن أقتلها مع ذلك البرود وتلك السلبية وهذا العناد الغريب!

أمسكت بيدها في قوة وحاولت أن أتوحد معها بقوتي كي تساعد الرحم على التقلص بقوة أكبر، ففي حالة كهذه لن تستطيع أن تدوم قوتها كثيرًا، ولكن للأسف فشلت التجربة لعدم صفاء ذهني، خفت عليها خاصةً وأن حملها لم يكن سهلاً كباقي النساء واعتقدت أن تلك الجلسة عند الشهر الخامس لها تأثيرًا سلبيًا، ولعنت نفسي أكثر من مرة جزاءَ فعلتي، ويبدو أن صوتي جاء عاليًا، لذا؛ فقد حاولت رغم آلامها أن تدافع عني، وهنا تدافعت دموعي رغمًا عني، ماذا سأفعل إن حدث شيء لها؟ مسحت بأصابعها دموعي في ألم، كم تمنيتُ الموت حينها!، ربَت أبوها على كتفي، وقال لي أن أخرج فابتسمت "ممفيس" قائلة لي، وكانت لم تزل تتألم:

-ألن تجرب التأمل معي؟

-لا.

قلتها في فزع.

-ألا تتذكر ما حدث؟... لقد ساهمت الجلسة... في تحريك الطفل... من مكانه... يمكن... أن تفلح هذه... المرة ... ساعدني... أن أتوحد... والقمر.

نظرتُ إلى والدها فوجدت تشجيعًا، لذا جلستُ معها أحاول أن أخفف عنها لتفرغ مشاعرها، دَعَتْ الوقت يمر بسرعة، نحو ربع تيكا كنت حينها وسيطًا بينها وبين القمر، حاولت أن أجعلها توجه قوة هذه الآلام لتتحد مع القمر، حاولت بكل جهدي ألا تفقد سيطرتها فيضيع كل شئ، والغريب أنه عندما اتحدت قوانا نزل الطفل سريعا -ليس في لمح البرق- وأحسست به حين ضغطتْ "ممنفيس" على يدي في قوة كبيرة حتى أن أظافرها غرست في يدي فسال منها الدم! عندما وصلنا إلى تلك المرحلة دخل "سايس" ليقطع الحبل السري.

كان "هيودو" الصغير قد أطلق أول صرخة له، ونظفته "سمكوزي"، لم يكن طفلاً عاديًا كما أردتُ؛ لقد أنجبنا الطفل القمر لذا أسميته "هيودو أكارا" و"أكارا" هو القمر في بلدنا، والغريب أن جلسة التأمل ساعدت في شفائها تمامًا، وكأنها امرأة

غير التي كانت تلد منذ دقائق، وعندما نظرتْ إلى الطفل وجدته مضيئَ الوجهِ وكأنه القمر، عيناه تشبه عيناي، لم نجد حمرةً على وجهِ فقط أشعةً تخرج منه، كان طوله ينبئ بأنه سيكون رجلاً طويلاً، حينما تراه وكأنه يخطف بصرك وعلقت "سمكوزي":

-أوه! لم أر مثله أبدًا؛ أنا التي لدي ستة أبناء منهم اثنان توأمان! شكرتْ "ممفيس" أباها و"سايس"، ومنحتني قبلةً سريعةً ثم حملت الولد، نصحتها "سايس" ألا ترضع الصغير فورًا... فقد أصبحت أبًا الآن.. أخذت أفكرُ من النافذة. هل اكتملت رجولتي، وأنا هنا في بلد غريب، وأخي -ابن عمي "هيودو"- ومعلمي "كازيتا" يواجهان الموت؟ هل أنا الزوج الذي تحلم به "ممفيس" حقاً؟ هل أنا أهلٌ لها؟ لم أعُد أعرف شيئًا حقا.. لا أملك شجاعة الإقبال على الموت. هل حقاً لأني رأيت أبي وأمي يقتَلان أمامي؟ أم أن الأمر يتعدى هذا بكثير؟ هل المشكلة فيّ حقًا؟... لا أعرف كما عهدت نفسي دومًا لا أعرف، لو كنت شخصًا فقيرًا من بلدٍ فقيرة، لعشت الآن في ضيعة صغيرة ترفرف الخولا حولنا، ولا نعرف للشقاء طريقًا، أم كنت سأرى أبي وأمي يُذبحان كالنعاج

وأَعْرُجُ إلى "مصر" أيضًا ولم تكن "ممفيس" أو حتى أبوها ليرضى بزواجها مني... تُرى، هل أنا متشائم؟.

ما تلك الحياة التي تبعثر عناصرها من حولي رمادًا؟ لا، إن بها أشياءً سعيدة، أشياء قد تجعلها جنةً أحياها -إن لم أنظر للحياة من هذه الوجهة- نعم سوف أراها من الآن ليس من منظور الحزن بل من السعادة، نظرة من له بيت وأسرة، نظرة من الدفء الذي وجدته بعد سنين من الحرمان.. إنها الحياة.

بعثت بخطاب لـ "هيودو" كي يستعجل لي أخبار الحرب فقد بتُ شديد الفضول أشتهي معرفتها، تلك السرية الفدائية فشلت، فقد اكتشفوا خيانة أحد القادة، أمر مؤسف ولكنه يدعو للتفاؤل وبضرورة، الاستعجال في الدخول إلى المغارة الكبيرة.

كل رسائل "كازيتا" تدعوني للعودة، غير أني قلق جدًا، لن أعود الآن خاصة وإنني بمركزي صيدٌ ثمينٌ سهل، فما زلت على ما أنا فيه من تأثير العيون الخضراء، غير أني أصبحت أميز لون عين زوجتي عنهم، حياة معقدة ونفسية غريبة، يبدو أن "ممفيس" ترى أن العيب مني، لذا لم تحاول أن تجادلني، وكأنه شيء في دمي أن أصبح هكذا احترت في نفسي، ولكني لم أجد الحل.

-"صباح الخير عزيزي! ألن تقبّل "هيودو"؟"

قالتها "ممفيس" في استعجال، وحملتُ أنا "هيودو" الذي كان يذكرني بابن عمي، لم يكن يشبهه إلا إنني كنت أتذكره عندما أحمله، يبدو أن للاسم تأثيره؟!

طارت الخولا تدق بمنقارها على الشباك المغلق وتعلقت عيناي بها، ألقيت نظرة على الطفل، ووضعته في سريره الصغير الذي لا يمتلكه هنا سوى أبناء الأثرياء! ثم فتحت للخولا، ولاحظت شيئًا غريبًا عندما دخلت، لقد أخذت من ضوء وجه الولد، وأصبحت هي الأخرى تضيئ، ترى ما هذا؟ بدأت جلسة التأمل على الفور، وكأنه لا شيء أنتظره، طال الانتظار للحسم في الحرب، فاعتدتُ عليه وفقدتُ الاشتهاء لمعرفة أخبارها، وقد بِتُّ مخرَّب النفس، لذلك توحدتْ قوتي والخولا، ونظرتُ إلى نفسي، ووجتني مضيئَ الوجه أيضًا، وعندما نظرتُ للطفل طار عن سريره وهو يضحك بصوت عالٍ، والغريب أن الخولا أخذت تطير بطريقة هندسية مدروسة، والطفل يشير بيده بطريقة غريبة، وعندما نظرتُ للخولا لم يقع الطفل، بل طار ليصل إليّ في سيطرة عجيبة، إنه

لم يكبر كثيرًا ليستطيع المشي، ولكنه يستطيع الطير، لقد عرف كيف يحرر قواه، ترى ما هذا الطفل؟

دخلتْ "ممفيس" لتخبرني أن الإفطار قد جُهِّز، إلا أنها شاركتني الدهشة، أنهيتُ تلك الجلسة غير أن الطفلَ ما زال محتفظًا بقواه، وكأنه هو أيضًا متحد مع الخولا التي لم تنفك تطير هندسيًا، نظرتُ إلى "ممفيس" كانت في قمة الاستغراب خفتُ عليها، ولكني جلستُ مع الولد حتى أعلم إلى متى سيحتفظ بقواه، كل هذا يُثري كتاباتي - وفي المقام الأول ابني حتى أتدخل في الوقت المناسب.

بعد الإفطار فتحت الخطاب وإلى جواري "ممفيس"، كان عبارة عن ورقتين؛ الأولى من "كازيتا" يقول:

-ارجع.. ارجع الآن لقد انتصرنا.

أما الثانية فمن "هيودو" وزوجته "شنسن"، والذي يحييني وامرأتي وابني، وكيف أننا أسميناه "هيودو"، وأن زوجته كانت تعرف أنه إذا لم يسمي "هيودو" ابنه "ديور" سوف اسمي أنا "هيودو" أما هو فقد بشرني بالنصر ودعاني إلى الرجوع لأخذ منصبي.

كانت "ممفيس" ستطير فرحًا حقًا، رغم أن ذلك يعني بُعدها عن بلدها ربما للأبد، إلا أنها تعلم أن بلد الزوج هو بلد الزوجة .. هل حقًا استحق هذا لعرش؟ ماذا فعلتُ لأردَّه؟ كان علىّ أن أُرتّب نفسي، هل أرجع إلى البلد التي لم تعرف سوى ولي العهد، ولم تعرف لـ "ديور" معنى؟ أم أبقى مع بلد تقدرني؟ ثم كيف سنرجع مع الطفل الرضيع، والرجل الأخضر، الممرات.. أنها مشقة علىّ وعلى "ممفيس" فما بالنا بالطفل؟

كيف لي الرجوع؟ لم أنم تلك الليلة، وأنا أفكر في أمور لم تتطرق لذهني قبل هذا الخطاب. الكل يرحب بي.. غلبني النوم، لا لقد كنت بين اليقظة والنوم، أما "ممفيس" فبرغم أنها لم تنم لم تصدر أي صوت، ودعتني أفكر بمنتهى الراحة، ولم تدخل في أفكار، واثقة في رأيي تمام الثقة، فقلت لها:

-إننا في الشتاء.

ردتْ علىّ "ممنفيس" في بساطة، وأكملت:

-سوف نأخذ معنا ملابس أكثر وأثقل.. لا تقلق.

ثم قالت:

-خذ قرارك، أما بالنسبة لي وللرضيع فلا تقلق علينا نستطيع السفر، وأبي لن يقدِر أن يذهب معنا فهو كالسمك لا يستطيع أن يعيش سوى في بحره.

لم نناقش الأمر بعد ذلك غير أنه بعد صعود قرص الشمس إلى كبِد السماء آتاني رسول الفرعون يدعوني إليه في قصره، ترى ماذا يريد؟ هل ستبدأ السياسية من الآن؟ لا أعلم شيئًا. أحضرتْ لي ممفيس ملابسي البدورية لأقابل الفرعون.

قصر فخم، رأيته عدة مرات من الخارج، يسكنه حراس عند الباب لا يبرحوه أبدًا ... يضعون كُحلاً على عيونهم وهم في قمة اللياقة، ولم يكن بقلوبهم غلظة -على الأقل معي- رغم أنه قصرًا مَهيبًا إلا إنني لم أقلق منه مطلقًا... لقد كانت مراسم استقبالي قد بدأت منذ عبور قدمي بوابة القصر.

بدت مني صيحة دهشة عندما رأيتُ تمثالاً كبيرًا يحمل وجهًا يشبه وجهي، ولكن وجهي ذا لون أزرق -أي أن دمي نبيل أو هكذا يعتقدون الفراعنة- كانوا يقدروني لأني ولي العهد أقصد الحاكم، صحيح أن الفرعون كان مهتمًا بي، ولكنه لم يهتم برؤيتي ولو لمرة واحدة، حقاً لقد بعث ببعض الرجال في المشفي عندما رقدتُ

مطعونًا، ولكن وقتها لم يكن ليسمح برؤيتي، ورغم ذلك احترمته... تساءلت هذه هي عقدتي الحقيقة!

-نرحب بك في بلدنا حاكم "بيدور"، كذلك عالم التأمل النابغ، وزوج عالمة النفس "ممفيس" المحترمة .

قالها الفرعون في سلاسة، كان ولابد من إقامة حفلة لحاكم "بيدور"، قُدِّم لي فيها الشراب الوفير، ووعد بليالي رغدة حتى أصل إلى بلدي، وقد دعى "ممفيس" وابني "هيودو" للقصر، ورتب حجرتين لنا وللطفل، والغريب أن الطفل لم يبدر منه شيئًا خارقًا سوى ذلك الضوء الذي يصدر عن وجهه! تحدثت وزوجتي:

-مصيري محدد؛ سأُرْجِع "ممفيس" برغم جبني، إلا إنني ولدتُ حاكمًا، وابنُ أخٍ لأعظم حاكم، أحقًا "ممفيس" استحق هذا العرش؟ لا "هيودو" هو الأحق...

-نعم عزيزي، أنت الحاكم، وإن كنتَ ترى أن تكون عالمًا في بلدك أو مستشار الحاكم، فهي مكانة لا بأس بها، أليس كذلك؟ عمومًا نحن في مكان لا يصلح فيه اتخاذ قرار كهذا... سنسافر، ونحن في الطريق قرِّر ما شئت، المهم الآن، متى ستسافر؟ متى؟

أنا من عليه أن يقرر أنا وحدي، نعم سأسافر إلى بلدي "بيدور"، لم أكن أعلم أن قرار السفر صعب لهذه الدرجة، أم أن الصعب تلك الترتيبات التي تسبقه أو تليه، أحقًا سأفرّط في حق ابني؟ لا بل سأعمل ما فيه مصلحة "بيدور"، لن أكون مميزًا في حكمي، قد أدمر كل ما بنيته هنا إن توليته، ثم إن "هيودو" أحق مني، لم نعتد أن نستأثر.

-"سأسافر غدًا أو بعد غدٍ على الأكثر."

طلبتُ من الفرعون أن يكون سفري سريًّا، ففي هذه الظروف لن تعرف عدوك، لن آمن لأحد سوى عائلتي وطير الخولا، فخطاب يؤكد أننا سنصل طائرين على وشك الوصول إلى ابن عمي، و"هيودو" يعرف معنى هذه الكلمة... ولكن الفرعون لم يعرف شيء عن تلك الطريقة السريعة، ومدى تنفيذها، فهو ليس قارئًا جيدًا جدًا، حتى يتسنى له أن يعلم ماذا سيفعل علم اليوجو أو التأمل، فيكفي عنده أن يخبره أحد الكهنة أو حتى صهري.

تلك الممرات لا يعرف عنها أحد من العامة، فقط الخاصة وخاصة الخاصة، ولا أعرف لماذا كانت سرًا، يبدو أنها الملجأ

والملاذ الأخير للأسر الحاكمة أو أنها مشروع لم يكتمل... لا أعرف بالضبط، ولم يكن عندي وقت لأعلم حينها أو اليوم.

بعض وريقات البردي منقوش عليها بأقلام من ذهب لتصف المناطق الجذابة في مصر، يبدو أنهم ينوون أن يبنوا معبدًا عندنا في "بيدور"، اعتبرتها إحدى هدايا الحاكم، واتفقت مع الفرعون ألا آخذ كل الهدايا عبر الممر، ومن الأفضل أن يبعث إليّ بها علنًا وبعد حين، فوافق مما زاد من احترامه في قلبي.

طرنا بداخل الممرات لساعات، ونحن متوحدين وموحدين قوانا بقوة طائر الـ "الخولا" الذي معنا، وعندما هلكنا تمامًا جلسنا على أرضية الممر لنرتاح، كان ثدي "ممنفيس" جافًا برغم أننا كنا نملك الماء والزاد، لم يختلف الممر برغم مرور السنين، فقط بتُ أنتظر الفارس الأخضر، ترى ما حاله الآن؟ لم أعد أدري حقًا، لم يكن معنا خادمًا، ورحبتُ بـ "ميناويس" بعد استقرار الأمور في بلدي، بعدما رفض تمامًاً العيش في غير بلده.

وبينما نحن جلوس، إذ بالطفل يسحب من قوة "ممنفيس" نفسها، لقد فعل ما لم أستطع أنا أو"كازيتا" فعله، لقد توحد

بقوته مع قوة من البشر (أمه)، وهكذا استطاع مع القليل من اللبن وقوة أمه أن يصمد معنا.

انتظرنا "هيودو" قبل وصولنا بنحو يومين هو وبعض رفاقه، فقد قدر مسافة طيراننا بحوالي ثلاثة أسابيع... لكم أحببته، وهو الذي يقدر ويخطط.

لقد جاءتْ لحظة الصفر، اللحظة التي أرى فيها سماء "بيدور" مرةً أخرى، لحظة جمعت قلق الدنيا، وفرحتها لحظة جعلت بعض شعيراتي بيضاء، وبينما أنا أضرب ببصري أمامي، إذ بجماعة غرباء يشيعون جثمان أحدهم، سلمت على الحاشية وكبار الرجال وذهني شارد وقلبي يكاد ينفطر... جثمان من هذا؟... كاد قلبي أن يقف قبل أن أسمع الجواب إنه آخر شخص يمكن أن أتخيله أنه...

obeikan.com

"الفصل الحادي عشر"

-"من؟ الفارس الأخضر؟ ذلك العجوز. أوه! هذا أفضل له بكثير، لقد أفقد كل موروث لدى هيبته، شيء غريب. إنه مهرج كبير، لن أنسى له حسن ضيافته، ولكن..."

سارعت "ممنفيس" تنادي عليّ قبل أن أخطئ في قول شيء أكثر من هذا، أعد لنا الحراس ديوريين لتركبهما، ساعدتُ "ممنفيس" على ركوب أحدهما، وفوجئت بالثاني إنه ديوري لقد انتظرني طيلة هذه السنوات، لم ينساني، أخذ يصهل في صوت أقوى من الحصان منشدًا لرجوعي، لكم أوحشني.

لا أعرف لماذا لم يستقبلني "هيودو"، لو كان طامعًا في الحكم لن يأخُذه، وإلا فلماذا لم يحضر؟ لا أنه من أرسل في طلبي على الفور. آه! ألن أنتهي من هذا أبدًا؟ ترجلت عن الديور وكل شبر في

ذلك القصر يذكرني بأقداح من الذكريات، كل خطوة يخطوها ديور بأرجله المألوفة تثير آلامًا، لكم أوحشتني!

تصبب العرق مني خاصةً عندما تفاديت مكان موت أبي وأمي أمام عيني، ودمعت عيناي آنذاك، ولكني الآن أمام القصر، قصر أبي وعمي "سنبارا"، تركت الدموع تسيل دون حرج خاصة وأن كل من حولي يدمع... قلت لـ "ممنفيس" إن "بيدور" أجمل وأجمل، ولكنهم حاولوا تخريبها. سوف أبني و"هيودو" كل شبر فيها ونعمره، دخلتُ إلى القصر، وما زالت صورتي و"هيودو" ترفرف أمام عيني؛ ذلك السلم الطويل، تلك الساحة... كل شيء كما كان بالضبط لم يتغير، يد ماهرة لعبت بعوامل الزمن وكأنه توقف... كل شيء كإنني تركته البارحة... سمعت ضجة في الساحة الداخلية غير تلك التي يحدثها الناس بالخارج، قابلني "هيودو" و"شنسن" تعانقنا، وكانت لحظة من أروع اللحظات وأنا أرى نفسي في "ديور" ولم يقدر أيًا منهما أن يخفي دهشته من "هيودو أكارا" المضيء.

اعتذر "هيودو" عن عدم استقبالي قائلاً:

-آسفٌ جدًا لقد تعمدتُ أن آتي بـ "ساكوتا" هنا لتأخذ بثأرك منه، لقد أصبح أسيري منذ وقت ليس بطويل. ما رأيك بهذه المفاجأة.

أخذتني الحمية، وقد تركت "ممنفيس" والطفل خلفي، واقتحمت القاعة الداخلية التي يقبع بها الأسير في المنتصف يحيطه فلاحان أو يزيد وعدة من رجال الحاشية أيضًا، وقبل أن أدخل بقدمي للداخل سألت عن باقي الأسرى، فقيل لي أنهم في مكان آخر، لم أهتم حينها بمعرفة ما هو، دخلتُ، كنت أعرف أن أعصابي ستخونني، وإنني لن أستطيع أن أثأر لعائلتي، كل فرد هنا يدعوني للثأر، وأنا أيضًا أتمنى ذلك.

لا أعرف ماذا حدث لي، ولكني عندما رأيت تلك العينين تذكرت كل شيء: العينين الخضراوين... أبي... أمي... رأسيهما... دماء متناثرة... خوف... موت... خوف من المجهول .. حياة الجبناء... لا. لا. لا.

نطقتُ بتلك الكلمات دون أن أشعر، وجدت تلك الصور تتابع في وقت قليل وبصورة منتظمة... العَرَق يسيل من كل خلية في جسدي... الدموع تسيل وكأنها مياه بئر... انتفاضة جعلتني

آخذ فأس فلاح كبير كان يجلس بعيدًا، ولم أدرِ إلا وقد قطعتُ رأس ذلك الغادر. كنت راكعًا على ركبتي، والدموع تسيل، كنت كريشةٍ في مهبِّ الرِّيح؛ انتفاضات قوية متتالية تعصف بجسدي... كان صوت تنفسي عالٍ جدًا... يد حنون بل أيادي أمسكت بي، وقد هلل الواقفين وتسارعوا ليخبروا الجمهور الواقف أمام القصر ينتظرون عودة المنتصر... أخيرًا أستطيع أن أرفع رأسي... أخيرًا أصبحت رجلاً كاملاً ليس جبانًا... لم يبقَ سوى شيئ واحد.

كان حشد كبير ينتظرني ولي العهد سابقًا والحاكم الآن، ووسط هذه الجموع أحسست أن "بيدور" كلها واقفة فخطبتُ فيهم.

-برغم إنني رددتُ كرامتي بقتل هذا الوغد! وبرغم إنني أصبحتُ عالمًا مُقَدَرًا في "مصر الفرعونية" إلا إنني لا أستحق العرش... نعم... لا تندهشوا كونوا من العدل بحيث تروا الحقيقة، أنه "هيودو"... "هيودو" هو الذي قاتل معكم... هو الذي حارب، هو الذي لم ينساني وأنا في أرض غريبة... "هيودو" الأخ الحنون الذي لم يخبرني بوفاة "كازيتا" معلمي ومستشار عمي مراعاةً لي

ولمشاعري، وأنا في الغربة... "هيودو" داهية الحرب... "هيودو" الذي يخاف على مصلحتكم، والذي لن أخاف عليكم معه.

صفَّق الجميع ودمعت عينا "هيودو" في تأثرٍ ورقصت شنسن فرحًا، وزاد ذلك الموقف من احترامي لدى "ممنفيس" وشعبي الذي أحبه، وهكذا أعلن "هيودو" أن "هيودو أكارا" هو ولي العهد الجديد، وأنه لن يقدر أن يستغني عني لذا؛ سأكون مستشاره الخاص.

كم خفتُ ألا أرفع رأسي ثانية! ولكني في النهاية نلتُ ما أريد دفء العائلة، وعِلمٌ عظيم... وولدٌ خارق. فهل يتمنى أحد أكثر من ذلك؟!

رباب حسين

القاهرة _ ٢٠١٣

obeikan.com